ندرة البطولة

كتب العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين بك مقالا فى الرسالة ذهب فيه إلى أن البطولة قد ندرت فى العصر الحديث ، فلا تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى ، ولا فى النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون ، ولا فى السياسة أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، ولا فى الغناء أمثال اسحق الموصلى وابراهيم بن المهدى ، وعلل ذلك على الجملة بانتشار التعليم وكثرة المتوسطين بين الناس .

وقد ناقشه صاحب الكتاب بالمقال الأول من المقالين التاليين فنادى الأستاذ قائلا : « إن كثرة العلماء والفنانين فى عصرنا الحاضر حجة لى لا علىّ ؛ وهى السبب فى أننا لانعدهم نابغين ولا أبطالا إلى أن قال : « فعصرنا الحاضر طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان فنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية »

وفى المقالين التاليين بيان لوجهة النظر الأخرى فى هذا الموضوع :

* * *

— ١ —

العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين يروى ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ ويسأل معهم : « هل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء ؟ وهل تجد فى النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة ! ! وهل تجد فى الغناء أمثال إسحق الموصلى و إبراهيم بن المهدى » وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات .

ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلا : « يظهر لى مع الأسف أن الظاهرة صحيحة ، وأن الجيل الحاضر فى الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوابغ ، ولا ينتج كثيراً من الأبطال ، وأن طابع هذه العصور هو طابع المألوف والمعتاد ، لا طابع النابغة والبطل » ثم يستعرض الأسباب ويختمها بقوله : « ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة » والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس

والتناول من وجوه مختلفة ، وليس له آوان يفوت بفواته. فإذا شغلتنا موضوعات أخرى عن تناوله فى الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدى الرأى فيه .

رأينا أننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض ، ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال . وإنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة ، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس .

إن الوجه فى المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا ، وأن نحصر العناصر التى تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال .

وهذا الذى ينساه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان .

فمن أمثلة ذلك : « هل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء ؟ » .

فالذين يسألون هذا السؤال يحسبون الماضى كله عصراً واحداً يقابله عصر واحد من الحاضر هو العصر الذى نعيش فيه ... وينسون أن الزمن الذى نشأ فيه بشار والمعرى يمتد من أواسط القرن الثامن للهجرة إلى أواسط القرن الخامس أى نحو ثلاثمائة سنة !.

وينسون أن المكان الذى نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام ، ومن الحضر إلى البادية .

وينسون أن العصر الحاضر الذى نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذى يبدأ بفتوة الشاعر وينتهى بوفاته .

وإنما الوجه أن يحضروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة ، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين ، فأنهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلكم العصور .

كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم : ما هى المزية التى كان بها النابغ القديم « أنبغ » من قرينه الحديث ؟ فلا يسألون مثلا : ماهو كتاب الجاحظ

الذى يستعجزون أبناء عصرنا عن الإتيان بنظيره ؟ فإن لم يكن كتاب فما هو الموضوع ، وإن لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة ! ولو كلفوا أنفسهم سؤالا كهذا لمالت معهم كفة الميزان وعلموا أن الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون إلى أن يتتلمذوا على أناس من المتخلفين ، وقلما يعتزون بمزية واحدة لا يعد لها نظير من مزايا المتأخرين .

وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلى وابراهيم بن المهدى ومن جرى مجراهما من المطربين فى العصور الأولى ، فماذا سمعوا من هذا أو ذاك ؟ ومن أين لهم أن الموصلى يبلغ شأو سلامه حجازى أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلا عن السبق الذى لايجارى والبون الذى لا يدرك ؟

أما أنا فأغلب الظن عندى أن الأمر معكوس ، وأن ألحان الموصلى لا تعدو أن تكون مزيجا من تنغيم البدو وصبغة الحضارة المستعارة والآلات الناقصة ، وكل ما يأتى على هذا النحط معروف الأصول معروف النطاق ، وإن يكن معروفاً بحروف النوطة وأصوات السماع .

كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة فى العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها فى العصور الحديثة .

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا إلى وقائع قائد مثل يوليوس قيصر أو الإسكندر المقدونى أو چنكيز خان قبل أن يرجّحوهم فى فنون الحرب على فوش وهندنبرج ومصطفى كمال ، ولو أنهم رجعوا إلى تلك الوقائع لما أكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الإكبار .

ودع أنهم ينسون أن كل حرب لا بد فيها من ظافر ومن مهزوم ، وأن الظفر وحده ليس بشىء إن لم ننظر معه إلى عوامله ودواعيه ونتبين أنها صالحة للتكرار فى كل وقعة وكل حين .

ودع أنهم ينسون أحكام المصادفات والعوارض وأنها تندر فى الزمن الحديث وتكثر فى الزمن القديم .

دع هذا جميعه فقد يكون فى نسيانه بعض أعذار لمن ينسون ، ولكن كيف تراهم يجارون الأقدمين فى مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء ، وهى قائمة على دعاوى وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان ؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أرباباً وأنصاف أرباب وقديسين وأشباه قديسين فى رأى الأقدمين ؟ فكيف نقابل بينهم وبين خلفائهم فى عصرنا قبل أن نسقط فى الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوى والأكاذيب . ان هذا لخليق أن يضيف إلى فضل المتأخرين لا أن ينقص معه ويحيف عليه ، لأنهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون فى الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب .

ليس فى تاريخ بنى الإنسان منذ بدايته إلى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والأمم والأفراد مثال ما يعرضه لنا العصر الذى نحن فيه .

ليس فى تاريخ بنى الإنسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا فى الحرب العظمى .

وليس فى تاريخ بنى الإنسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين والأكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من « أبناء الشعب » كمصطفى كمال ورضا بهلوى وستالين وموسوليني وهتلر وكابللرو وكرديناس . وماذا عندنا من الأدلة على أن العصاميين فى الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى إلى البطولة فى صنيعهم من هؤلاء ؟.

وليس فى تاريخ بنى الإنسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية العاطفة مثل ما عرضه لنا العصر الحاضر فى غرام ملك الإنجليز السابق وصديقته السيدة سمبسون . فماذا عندنا من الأدلة على أن غرام هيلانة فى طروادة المزعوم كان أعجب وأدنى إلى البطولة من هذا الغرام ؟ وليس فى تاريخ بنى الإنسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها، وعرضته معها الثورات فى مصر والهند والصين . فماذا عندنا من الأدلة على أن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلائل الخطوب أوفى من هذا النصيب الذى شهدناه ؟ .

وليس فى تاريخ بنى الإنسان عصر أنجب فى كل أمة نموذجاً يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندى وسون ياتسن وشيان كاى شيك وفيصلا وابن سعود .

وليس فى تاريخ بنى الإنسان عصر فيه مافى عصرنا من الحقائق التى تشبه الخيال والعبر التى تشبه نوادر الأمثال ، والشواهد التى تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الإنسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية... فعندنا وعلى مسمع ومشهد منا مصداق كل رأى حام فى ذهن فيلسوف ، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث فى عالم النظريات ، وليس فى تاريخ بنى الإنسان مخاطرات أهول ولا أنبل من مخاطرات ركاب الطيارات والمظلات والغواصات المتفجرة والسفن المدمرة التى يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الأقدام كل يوم ، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من اللهو أو لعبة من ألعاب الرهان .

فإن كنا لانسمى مانبصره ونسمعه عجائب وروائع ولانحسبها معارض للبطولة والنبوغ فقد غيرنا الاسماء وقد بدلنا اللغة ، وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب .

نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم فى الشعر من طراز شكسبير فلانرى له نداً بين الشعراء المعاصرين . ولكن النوابغ من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذى نبغوا فيه ، وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلقاء أن يبحثوا فى زمانهم عمن يضارعون نوابغ القرن العشرين فى العلم والاختراع والموسيقى والفن كافة فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة... وإن العصر الحديث مع هذا ليفهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه ، ويقدره خيراً مما قدروه ، ويمثل رواياته أكثر وأجمل وأبرع وأكفل بالإقبال والإعجاب مما كانوا يمثلونها فى حياته .

أذكر أننى رأيت منذ سنوات فى إحدى الصحف الإنجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين فى أزياء العصر الحديث شفعتها الصحيفة بهذا السؤال : هل تعرفهم ؟.

وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن . لأن الصور التى رأيناها لأولئك العظماء

قد سلبتهم كثيراً من الهيبة و بدلت ماحولهم من هالات الفوارق والمسافات التى يوحيها اختلاف المظاهر والأزياء .

و إن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء الأمس ، فى أزياء اليوم ، وعظماء اليوم فى أزياء الأمس ، لنعرف مقدار ما نضيفه إلى الغابرين من هيبة الفوارق والمسافات ومقدار ما نسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة .

فإن تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عياناً فلنرسمه بالظن والتقدير . ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نلمس مواضع الزيادة والنقصان فيها ونصلح جوانب الغلو والبخس فى كفاتها ، ونفهم تصحيح الميزان فى الحكم على الرجال والأزمان . لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدى من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب... إذ لاضرر ولاقصور فى اختلاف التفضيل والترجيح متى صحت النظرة واستقام القياس . تلك هى الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بيننا كما أراها ، أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبون للأنصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها .

— ٢ —

« إن كان هـذا — يا أخى — هو الذى أردتُ فأظن أنه لايرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر . و إذا كان النبوغ فى السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ » .

وموضع الوفاق بين ما قال الأستاذ وما قلت أننا لاينبغى أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين ، فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، و إنما المقارنة بين الملكات فى الزمن الماضى ، والملكات فى الزمن الحاضر ، وهذا ما نختلف عليه ؛ إذ لاموجب عندى لأن تكون ملكات النابغين فى عصرنا أقل مما كانت فى عصر الأقدمين .

إن النبوغ صفة فى أصحابها وليست صفة فى غيرهم ، فإذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية فى أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء . وكل ما هنالك من فرق أن النابغة الذى يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذى يظهر بين الجهلاء ، وتلك شهادةٌ للنابغين فى العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات .

ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه ، هى مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين ، لأن النبوغ ملكة مطبوعة ، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هى هى المسافة بين الفريقين قبل مائة عام أو ألف عام ، فليس فضل إديسون فى زماننا أنه يعرف فى علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره ، ولكنما فضله أنه نابغ وهم غير نابغين ، فأفاد بالعلم اليسير ما لم يفده الآخرون بالعلم الغزير ، وظلت المسافة بينهم وبينه فى النبوغ كالمسافة بين أرخميد ومن عاصروه من غير النابغين ، وإن اختلف العصران فى شيوع العلم وكثرة المتعلمين .

يقول الأستاذ الفاضل : « مقياس النابغة فى نظرى أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم فى فنه أو علمه أو أدبه حتى لايدركوه إلا بعد أزمان ، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة فى النحو ، لأنه رأى من قواعده ماعجز أهل زمانه عن النظر إليه » .

وأنا أقول كما يقول الأستاذ : إن النابغة يفوق أهل زمانه فى معرض من معارض العلوم والفنون ، ولكنى لاأقول إن عصرنا لم ينجب أمثال سيبويه ، بل أقول إن سيبويه لوعاش فى عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء ، وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا فى عصره لما قصروا عن شأوه ، لأن الملكات التى تعرف وحدة الأسماء والأفعال بين لغات أوربا ولغات آسيا لاتقل عن الملكات التى تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية ، لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون .

وعندى أن المعاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمون ينظرون إلى النوابغ والأبطال فى عصورهم ، إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الإيمان . فالأستاذ يقول إن نابليون ظهر « فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقاً فى ناحيه . وبيننا الآن فى عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظراً ، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولأنه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا المنفذين المأمورين ، فظهر ولم يظهروا ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل » .

فليت الأمر كما يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية ، إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثانى عشر لم ينادِ بأن الإمبراطور معصوم كما ينادى الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة « الدوتشى » وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض .

والواقع أن نابليون لم يجسر يوماً على صنيع كالذى صنعه « الفوهرر » قبل ثلاث سنوات من « تطهير » البلاد بلا محاكمة ولا سؤال .

وقد كان « لنين » ينحى على القديسين ، ولا يعترف للعظماء بأثر فى توجيه التاريخ إلا الأثر الذى يعترف به الشيوعيون ، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب فى عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين .

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التى تندفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية ، كما نسمع بالألوف التى تتدفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السياحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة فى كل ميدان يتصل بالجماهير . أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم واشتهر فليس نصيبه من الإعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب ، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤساً وغبناً وشظفاً فى أقرب العصور وأبعد العصور .

لا ، بل نحن لانستثنى أصحاب المكانة الدينية على إطلاق الاستثناء ، فما يربحه

الدعاة باسم الدين اليوم لا يقل عما كانوا يرتجونه فى الأيام الخالية ؛ والثقة بأغاخان اليوم وهو يعيش فى أوربا عيشة المترفين المتطلقين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش فى صومعته قبل عصر الكشف والاختراع .

ولم ننفرد نحن باكبار البعيد فى الزمان أو المكان وترجيحه على أنداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة اللقاء ، فقديماً كانوا يقولون إن زامر الحى لا يحظى باطراب ، وقديماً كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالإصغاء والتقريظ .

وأحسب أن إيثار الماضى على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعات لا تنحصر فى وقت ولا يخلو منها قبيل .

فالماضى يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الأنظار كالمثل الأعلى فى هالاته وخيالاته، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذى نحب أبداً أن نتجاوزه ونطمح إلى ماوراءه

ولقد كان المشركون ينكرون النبى عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه «يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يأكلون طعاماً ولا يمشون فى سوق ؟ كلا بل كانوا يأكلون ويمشون ، ولكنهم بعدوا واحتجبوا فخيل إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون .

ومن العلل التى تجنح ببعضهم إلى تهيب « السلف الصالح » أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد ، كأنهم كبار ونحن صغار، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئات من الأعوام ، وينسى المتهيبون أن السابقين كانوا أطفالا فى سن الطفولة، وأننا سنصبح شيوخاً مع السنين أو نربى فى الشيخوخة على أولئك الآباء والأجداد .

ومن تلك العلل ما أومأنا إليه فى مقالنا الأول عن سهو الذين يقارنون بين الماضى والحاضر فيجعلونهما كفتين تتساويان فى نطاق الزمان والمكان ، مع أن الحاضر زمن واحد والماضى حاضر قد تكرر عشرات ومئات .

وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سببان آخران لا يلحظان بهذه القوة

فى جميع الشعوب : أحدهما أن العربى يعتز بالأنساب وينوط الفخار كله بماضيه ، لأنه من سلالة القبائل التى تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الأصول .

والثانى أن الماضى أقرب إلى منشأ الدين ، فيخيل إلينا أن الأقدم فالأقدم هو الأصلح فالأصلح والأعلم فالأعلم ، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس .

* * *

تلك الأسباب كلها خليقة أن تضاعف احتراسنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد ، فهى صنجة تؤخذ من كفة الأقدمين وتضاف إلى كفة المحدثين فى ميزان الإنصاف . ومما لا شك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل فى عصرنا بل هى أحجى أن تزيد وتنشط ، بل هى قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعى والمنافسة والتفكير والاستنباط ؛ ومما لا شك فيه أن الأقدمين لم ينظروا إلى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا ، وأنهم لم يشعروا قط بتلك المهابة التى نضفيها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذى نمحضهم إياه . أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم كما نراهم الآن فذلك ما نخالف فيه الأستاذ لأنه خلاف المعهود والمروى والمسطور . وهبهم أكبروا معاصريهم لأنهم قلائل ، وأصغرنا معاصرينا لأنهم كثيرون لا نادرون كما يقول الأستاذ الفاضل ، فإنما يكون ذلك كالذهب الذى يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لا شك فيه ، وإنما يكون النبوغ نبوغا ولا يكون شيئاً آخر مهما يكن حظ الناس من التعليم ، لأنه ملكة فى الطباع لا يختلف كنهها وإن اختلفت أنظار الناس إليها ، ولا تزال الإنسانية بحاجة إلى الكثير منها والقليل .

وخلاصة القول أننا نستطيع أن نقول مع الأستاذ الكبير إن النبوغ فى عصرنا كثرة لا ندرة ، ولا نستطيع أن نقول معه إن المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب فى العصر الحديث ، لأن ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التى يخلق بها النابغون الممتازون .

توارد الخواطر

قبل أربع عشرة سنة كتب صديقنا الأستاذ المازنى مقالا عن الخيام ألمع فيه إلى تصوف الخيام واستغرب أن يدين رجل مثله بخيالات المتصوفة وشطحاتهم البعيدة عن تحقيق العلم وتقرير الواقع لأنه «كانت له موهبة تنأى به عن التصوف : ذلك أنه كان رياضياً بارعاً ، ومما يذكر له فى هـذا الباب تنقيحه التقويم السنوى تنقيحاً أظهر فيه من الحذق والأستاذية ما أطلق لسان جيبون المؤرخ الإنجليزى بالثناء عليه . وله كذلك طائفة من الجداول الفلكية ومؤلف فى علم الجبر بالعربية ، والذهن الرياضى مجاله وعمله ضبط الحـدود والحصر وتعليق النتائج بأسبابها والمعلول بعلته ، وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية والترتيب والتبويب مالا يطيقه أو يقوى عليه ذهن المتصوف . ومن العجيب أن فتزجرالد لم يفطن إلى دلالة هذا ولا خطر له أن يسوق هـذه الحجة فيما ساقه لتبرئة الخيام من التصوف »

ومن رأيى الذى لا أزال أراه أن الملكات الرياضية أقرب الملكات إلى التصوف والفروض البعيدة والعقائد الخفية ، فكتبت يومئذ بصحيفة البلاغ مقالا عن القرائح الرياضية والتدين ، ناقشت فيه رأى الأستاذ المازنى و بينت فيه أسباب العلاقة بين القريحة الرياضية و بين التدين والإيمان بالغيب ، وأهمها أن حقائق الرياضة ذهنية وليست خارجية ، فهى أقرب إلى الفروض وأبعد عن مراجعة الواقع الذى يراجعه علماء الحس والتجربة والمشاهدات العملية ، فاعتماد الرياضيين على البديهة أكثر من اعتمادهم على الملاحظة ، واستعانتهم بالفرض أكثر من استعانتهم بالتجربة : وموقفهم أمام المجهول موقف من يسلم به فرضاً ولا يستبعد فيه أى شىء ، وهـذا سر تدينهم وإخباتهم وميلهم إلى تصديق المعجزات والخفايا وما شاكلها مما يلى البديهة الغامضة ولا تكاد تجمعه بظواهر الأشياء صلة . وفى عصرنا هذا لم يشتهر أحد من الرياضيين

كما اشتهر أوليفر لودج الإنجليزى وفلامريون الفرنسى وأديسون الأمريكى ، وكلهم من أعظم علماء الرياضيات ، وكلهم مسترسل فى إثبات أسرار الروح وكشف غوامض الاستهواء .

قلنا : « لهذا تتآخى فروع هذه الحقائق أحياناً وتتآلف العلوم التى تبحث فيها وتتقارب الملكات التى تكون فى المشتغلين بها ، فيكثر من يجمع بين الفلسفة والرياضة ولا يندر أن ترى من يجمع بينهما و بين الموسيقى معاً . فالفارابى مثلا كان رياضياً مبتكراً فى الموسيقى ، وفيثاغوراس — وهو من أقدم فلاسفة ما وراء الطبيعة عند اليونان — كان يبنى فلسفة الكون كله على النسب الموسيقية بين الأعداد . وقد مر بمصر قبل أيام نابغة من أفذاذ الرياضة هو ألبرت اينشتين صاحب فلسفة النسبية التى دهمت الناس ببدع شتى فى تعريف الوقت والفضاء يكفى أن نذكر منها أن الخط المستقيم ليس من اللازم أن يكون أقرب موصل بين نقطتين . وهو فيلسوف رياضى وموسيقار بارع فى العزف على القيثار . وليس يخفى الشبه القريب بين ملامح العظماء من الفلاسفة والرياضيين وملامح العظماء من نوابغ الموسيقيين . فقد تلتبس عليك صورهم حتى لا تكاد تميز بعضهم من بعض ولاسيما فى نظرات العين وسعة الجبهة وارتفاعها . . . » ومن ذلك أن ينبغ العازفون والحاسبون والعدادون فى الطفولة الباكرة وفيادون الخامسة أحياناً ولا يحصل ذلك فى سائر العلوم .

ذكرنى ذلك البحث القديم الجديد اتفاق عجيب بين أمور متعددة لا رابطة بينها فى هذه الأيام .

فالأستاذ المازنى يكتب عن توارد الخواطر ، وفى مقالى الأخير بالرسالة كلمة عن الرياضيات واتصالها بعالم الروح ، و بينا أفكر فى هذه الموضوعات إذا بكتاب جديد يصدر من مطبعة « جولانكز » الإنجليزية عنوانه « عظماء الرياضيين » لمؤلفه الأستاذ (بل) الرياضى المشهور فى الجامعات الأمريكية . فتصفحته واستقصيت بعض تراجمه فإذا به لا يقول ما قلته عن الصلة بين التدين والرياضة والموسيقى والحقائق الفرضية ،

ولكنه يعرض لنا تراجم العظماء الرياضيين وعجائب آرائهم ونوادر صباهم وطرائف أخبارهم فلا يسع القارىء إلا أن يخرج منه بتلك النتائج التى أجملناها قبل أربع عشرة سنة ، كأنها استقصاء ثم تلخيص لكل ما ورد فى ذلك الكتاب .

من ذلك أن الرياضى الكبير سلفستر يقول : « ألا يجوز إذن أن توصف الموسيقى بأنها رياضيات الحس وأن توصف الرياضيات بأنها موسيقى العقل ، وأن يقال إن الموسيقار يحس رياضياً وأن الرياضى يفكر موسيقياً ؟ فالموسيقى هى حلم الحياة ، والرياضة هى عمل الحياة ، وكلتاهما تستوفى نصيبها من الأخرى حين يرتقى الذهن البشرى إلى أوجه الأعلى ويسطع فى مزدوج من العبقرية يجمع بين موزار وديرشليه ، أو بين بيتهوفن وجاوس ، وهو الازدواج الذى تجلى وميض منه فى عبقرية هلمهولتز وأعماله »

ومن ذلك أن الرياضى السويسرى النادر المثال ليونا إيلر الذى قيل فيه إنه يصنع المعادلات كما يتنفس الهواء ، كان شديد التدين ، وكان يصلى بالأسرة فى منزله ، وخطر له أن ينتقل من ألعوبة دبروها فى البلاط الروسى للفيلسوف «ديدرو» إلى الجد كل الجد فى إثبات وجود الله بالمعادلات الرياضية . فلما تمادى ديدرو فى تكفير رجال الحاشية الروسية ومجادلتهم فى وجود الله تعمدت كاترين الكبيرة أن تداعبه وتفحمه من طريق الرياضيات التى كان يجهلها كما يجهل اللغة الصينية ، فوكلت به إيلر فواجهه فى جد ورصانة ولفق له معادلة وتحداه أن يجيب إن استطاع الجواب ... فلم يدر الفيلسوف بماذا يجيب ، وكانت أضحوكة البلاط إلى حين .

قال الأستاذ (بل) مؤلف الكتاب : « ولم يقنع إيلر بفكاهته الفاخرة بل حاول بعد ذلك أن يجلو الزنبقة وراح وهو جاد غاية الجد يركب المعادلات والبراهين الرياضية التى تثبت أن الله موجود وأن الروح مجردة من المادة . وقيل إن هذه البراهين تسربت إلى فلسفة الفقه والتصوف على أيامه فكانت على الأرجح نخبة الأزاهير التى تتمثل فيها عبقريته الرياضية بمعزل عن الشئون العملية » .

ومن ذلك أن جاوس الملقب بملك الرياضيين عرف تصحيح الحساب قبل بلوغ

الثالثة من عمره وكان أبوه رئيساً لطائفة من العمال، فلما كان يوم السبت واستدعاهم لإحصاء مالهم وما عليهم بمسمع من طفله الصغير غلط فى الجملة فصاح به الطفل : « يا أبتاه ! ليس هذا بصحيح ، وإنما الصحيح كيت وكيت » وروجع الحساب فإذا هو على صواب .

ويقول المؤلف : « ومما تشوق ملاحظته — لما هو معهود فى الرياضيين من الميل إلى الموسيقى — أن فيرستراس الكبير لم يكن يقبل الأنغام على ضروبها مع اتساع مشاركاته ، فلم تكن تعنيه ولم يزعم هو أنها تعنيه » .

وعندنا أن هذا غريب حقيق بالملاحظة كما قال المؤلف ، إلا أن غرابته تهون كثيراً متى ذكرنا أن فيرستراس هو القائل إن الرياضى لا تستقيم له ملكة الرياضة إلا بقسط من الشاعرية فيه ، وأنه كان يعارض إخوته فى تعلم الموسيقى لأنهم كانوا يروضونه بها على الرقص وشهود المجتمعات .

وكان « كبلر » يزعم أنه اهتدى إلى نسبة بين حركات الكواكب السيارة ومواقعها تشابه النسب التى بين الأنغام الموسيقية والمقامات .

وتتعدد الأقوال التى ترجع بتركيب الكون كله إلى النسب الرياضية ولا سيما بعد ماظهر فى السنوات الأخيرة من تحليل النور ورد المادة كلها إلى الاشعاع ، ورد الإشعاع كله إلى مقدورات عديدة يوشك أن تخرج به من عالم المادة إلى عالم الحساب

فبعد مقال أفلاطون : « إن الله يهندس » ومقال جاليلى : « إن كتاب الطبيعة العظيم متكوب بلغة الرياضيات » ومقال جاكوبى : « إن الله يحسب » يقول الأستاذ جينس فى كتابه « الكون الخفى » وهو من أقطاب العصر الحديث : « إن مهندس الكون الأعظم قد بدا لنا اليوم محض رياضى ... وإن الكون يلوح لنا رياضياً على منوال مخالف لكل معنى تصوره الفيلسوف « كانت » أو كان فى وسعه أن يتصوره فى أيامه ، فإن الرياضيات بالإيجاز تهبط إلى الكون من عل ولا تصعد إليه من الأدنى »

ومن الاتفاق الذى ينساق فى هذا المساق ما رواه الأستاذ جينس فى كتابه المتقدم عن رأى هكسلى فى المصادفات وتوارد الخواطر . فهو يعتقد اعتقاده أننا

لو أسلمنا الآلات الكاتبة إلى ستة قرود يدقون على حروفها بغير قصد ولا معرفة ، ملايين بعد ملايين من السنين لكان لزاما أن يجيء الوقت الذى « تنكتب » فيه بهذه الوسيلة جميع الكتب التى فى المتحف البريطانى » .

ولا يخفى ما يريده هكسلى بهذه النكتة المنطقية ، ولكنه على كل حال قد خرج بالمسألة إلى « ما وراء الطبيعة » وأبطل حكم العقل والإرادة فيها . فمهما يطل عمر الإنسان فما هو ببالغ أن يفسر لنا على هذا النمط اتفاق الخواطر فى صفحة واحدة بله الألوف من المجلدات التى تحويها دار الكتب البريطانية .

ولا حاجة إلى القرود الستة وملايين السنين والآلات الكاتبة لتعليل توارد الخواطر فى الآراء أو فى العبارات ، فإن علم النفس يغنينا حيث لا يغنى التطوح ملايين السنين وراء المشهود والمحسوس . وقد كان علم النفس كافياً حتى الآن لتعليل حفظ العقول صفحات عديدة فى حالة « الغيبوبة » أو حالة التنويم المغناطيسى أو حالة « التنويم الذاتى » أو مايشبه هذه الحالات من عوارض الحمى العصبية . فإذا رأينا حالة كالتى رواها صديقنا الأستاذ المازنى يستوعب فيها الإنسان بضع صفحات لايخرم منها حرفاً ولا نقطة ثم يعيدها وهو معتقد أنه يمليها من وحى بديهته فلنرجع إلى علم النفس فى وصف العوارض التى تأتى بهذه الغرائب فإنه لكفيل بتعليلها أو بإبداء مقطع الحق فيها .

وإنما العبرة من جميع ماتقدم أن نسأل : ترى لو صدر كتاب « عظماء الرياضيين » قبل كتابة المقال الذى ناقشت به الأستاذ المازنى منذ أربع عشرة سنة ، أما كان أقرب الاحتمالات إلى الذهن أننى قرأت ذلك الكتاب واستوحيت منه التحليل الذى فرقت به بين عقول الطبيعيين وعقول الرياضيين وعقول الموسيقيين ؟ أما كان من المستغرب يومئذ أن يقال إننى لم أطلع على ذلك الكتاب وإن كان مؤلفه لم يبسط فيه الرأى الذى بسطته ، ولم يتجاوز أن جمع أخبار الرياضيين وعجائبهم فى سجل واحد ؟.

فأما وصدور الكتاب بعد كتابة المقال محقق لاشك فيه فهذا التوافق يبدو

سهلا جائزاً خلواً من الغرابة . ومن ثم ينبغى أن نقدم الاستقراء العقلى — فى تمحيص الخواطر المتواردة — على استقراء التاريخ مع رجاحة هذا وصعوبة الاستغناء عنه ، لأن استقراء التاريخ وحده لايكفى للبت فى جميع الأمور .

ونعنى بالاستقراء العقلى أن نمتحن ذهن الكاتب وأن نتابع وجهته فى تفكيره ، فإذا عرفنا أنه قمين أن يقول ماقال ، وأن يخوض حيث خاض ، ويتوجه حيث توجه ، فالاتهام بعد ذلك ضرب من اللغو والتمحل ، وإن لم يكن كذلك فهو متهم ولو لم يكشفه استقراء التاريخ .

أما حين يقع الاتفاق فى العبارات والحروف صفحات متواليات فليس من المروءة أن نجزم باستحالة ذلك قبل أن نحتكم إلى الاستقراء العقلى من طريق علم النفس ودرس الذهن الذى تقع له أمثال هذه الغرائب ، فقد يهدينا الحكم الوئيد هنا حيث يضلنا الحكم السريع ، ولا ضير علينا إذا تطابق الحكمان فى النهاية بعد الموازنة والمقابلة بين جميع الفروض .

لا نخدع أنفسنا حتى يخدعونا

لم نخدع أنفسنا حتى خدعنا الأور بيون عنها فانخدعنا ! .

ثم صدقنا أننا أهل عاطفة ولسنا أهل عقل ، وأننا أهل خيال ولسنا أهل حس وأننا أهل روح ولسنا أهل مادة ، وأننا لذلك مخفقون .

وأنا مع الذين يقولون : إننا لسنا أهل عقل ولا أهل حس ولا أهل مادة، ولكنى لست ممن يقولون : إن هذه « الليسية » توجب لنا نقيضها وتعطينا مايقابلها ، فنصبح أغنياء فى الروح لمجرد أننا فقراء فى المادة ، ونصبح نفاذين فى الخيال لمجرد أننا محجوبون عن الحس ، ونصبح و « العاطفة » فياضة من نفوسنا لمجرد أننا مستريحون من العقل أو واقفون منه عند ينبوع جديب .

فجائز جداً أننا لا عاطفيون ولا عقليون ، ولا روحيون ولا ماديون ، ولاخياليون ولا حسيون ؛ وأننا على نصيب نزر من جميع هذه الصفات فلاتستلزم القلة فى إحداها كثرة فى نقيضها ، لأن الصفات الإنسانية لا تمشى عدلين عدلين متلازمين يعلو أحدهما حيث يهبط الآخر ضربة لازب . بل قد ينعدم العدلان والبعير معهما فى كثير من الأحيان . . . !

* * *

واليقين عندى أننا منذ زمن طويل فقراء فى العاطفة محتاجون إليها أشد من حاجتنا إلى العقل والعلم والحكمة وسائر مشتقاتها .

وكان هذا رأيى يوم ناقشنى فيه فقيد العراق الأكبر جميل صدقى الزهاوى المصلح الحكيم ، وكان — رحمه الله — يسألنى : بماذا عبر لندنبرج المحيط الأطلسى : أبالعقل أم بالعاطفة ؟ فأجيبه : « بالعاطفة » . . . فإن العاطفة لا العقل هى التى أركبته الطيارة بعد أن فرغ العقل من تركيبها فى المصنع وتركها حديد

لا تتحرك ولا تأتى بالفلق إلا أن تقـدم بها عاطفة مجازفة لا تبـالى العقل ولا تحفل السلامة .

والذى كان يسمعه رحمه الله يقسم حسبة الطيـارة إلى كومين : كوم العاطفة وكوم العقل ، يخيل إليه أننا نحن الشرقيين قد ظفرنا منها بكل ما فيها من عاطفة وهمة وطموح ومغامرة واستطلاع ، ولم يبق منها للغربيين غير حفنة من مسامير ومطارق وأرقام ، هى التى يرتع فيها العقل ما يشاء !

* * *

والآفة كلها من أوربة نفسها .

فقبل اتصال أوربة بالشرق لم يقل أحد من الشرقيين إن الشرقيين أهل أحلام وخيالات ، وإنهم من رجال العاطفة وغيرهم من رجال العقل والواقع .

ولـكن الأوربيين وصفونا هذه الصفة فاغتررنا بها ومضينا فيها ، ولا سند لها على الأرجح أقوى من ألف ليلة وليلة وما جرى مجراها من القصص والنوادر ، وهى كما نعلم ليست « بالخيال » فى أى سمة من سماته ولـكنها « واقع » مع إيقاف التنفيذ كما يقولون فى لغة القانون ! أوهى أحلام الجائع فى سوق الطعام ، لا فرق بينها وبين الواقع إلا أن الجائع يستطيع الأكل فعلا ، وهو عاجز عن الأكل لأن الأكل غير موجود!

فالخيال المزعوم عند الشرقيين هو « واقع ناقص » لا يحسب له فضل الواقع ، ولا يحسب له فضل الخيال .

ولو كان خيالا حقاً لـكان ابتكاراً وخلقاً وسعياً إلى عالم جديد ولم يكن واقعاً فى كل شىء إلا فى أنه غير موجود .

فنحن واقعيون مفرطون فى الواقعية .

وكل الفرق بيننا وبين الأوربيين أن الأوربيين واقعيون يجـدون المائدة التى يأكلونها ، ولـكننا نحن واقعيون نمضغ مائدة من الهواء . . . ومن الخطأ جد الخطأ أن نسمَّى من أجل ذلك خياليين أو حالمين .

أخياليون وحالمون لأننا نعيش فى عالم ألف ليلة وليلة ؟ فما عالم ألف ليلة وليلة إذن ؟ عالم قصور وموائد وكنوز وفتيات حسان ... عالم واقع ملموس تراه العيون وتذوقه الأفواه إلا أنه لاينال ، وليس هذا هو الخيال .

بل الخيال هو فكرة يبيع الإنسان فى سبيلها متاع الدنيا وكنوز الأرض وبهرج الحياة .

أوهو مثل أعلى لاتعرفه شهرزاد ، ولا يتبعه صائغ البصرة ، ولا تراه فى ديوان من دواوين تلك القصص التى هى وسوق الرقيق سيان .

وبودنا ألف ود لو يعظم نصيب الشرق من هذا الخيال .

* * *

وقريب من هذا اعتقادنا أننا نحن المشارقة أهل السماحة والبر لأننا لانصول ولانجول ، أو لانصنع اليوم السلاح الذى نصول به ونجول ! .

فماذا يوم كنا نصنعه ، أو يوم كان سلاحنا الذى نصل إليه كفيلا بالنصر على أعدائنا وعلى العزل المستضعفين من جيراننا ؟ .

كنا نتغنى بالسيف كما لم تتغنَّ أمة قط بسلاح ، وكنا نعيب « رذيلة » السلم كما يعيبون اليوم رذيلة الكفاح .

ولعل الأموال التى بذلت فى الخير بين الغربيين لاتقل عن الأموال التى بذلت فيه بين الشرقيين . ولعل جهودهم فيه لاتقل عن جهودنا ، وثمرات أعمالهم فيه لاتقل عن ثمرات أعمالنا ، وعلامات البر فى عصرنا الحديث لاتقل عن علاماته فى سائر العصور .

فالإنسان إنسان حيث كان .

ذلك أصدق ميزان للخلائق الإنسانية فى كل أمة وفى كل أوان .

* * *

وأحرى بنا فيما نعتقد أن ننجو بعقولنا من أحلام الأوربيين التى أفرغوها علينا لا من أحلامنا نحن فليست لنا بحمد الله أحلام من القوة بحيث تتقاضانا النجاة منها .

إن أناساً من هؤلاء الأوربيين أفزعتهم بلادهم فى القرن الثانى عشر وما بعده فحلموا بالشرق كما يحلم آكل الأفيون بما يراه فى غيبوبة الخدر والجمود ، ونحلوه صفات ليست منه وليس منها فأعجب الشرقيون بما كتبوه .

أو أن أولئك الكتاب الأوربيين قد تخيلوا أبطالهم من الشرقيين كما نتخيل الأبطال الذين تنحلهم فى الروايات شمائل نتمنى أن نراها فى عالم الحس فيعيينا طلابها .

أما الواقع فلا .

الواقع أننا نحن الشرقيين لسنا عاطفيين ولسنا مأخوذين بالروح ولا مفتقرين إلى من يسوق لنا المواعظ بالإقبال على المادة والانصراف كما يقولون عن الخيال . ونحن أفرح من طفل بالدرهم وأعجز من طفل عن كسبه فى سوق الابتكار .

أنحن أهل خيال ؟ .

سمع الله منكم أيها القوم ! .

لقد عشنا عصرنا الحديث نضرب المثل « بالجرسون » الرومى فى الحرص على الملليمات ، ولو رأينا معاهده فى بلاده وفى بلادنا لعرفنا من صاحب الحرص ومن صاحب الأريحية وإن اختلفت العوارض والأشكال .

وربما ألقينا بقطعة اللحم من الفم لنزدرد قطعة اللحم التى فى الماء ..!

أخيال هذا ؟ .

كلا ! ولا النحاس الذى يستحيل ذهباً ولا الصفقة التى يدركها الصعود فى سوق القطن فتفتح الكنز كله بعد يوم .

مافى شىء من هذا خيال وإنما هو كله واقع العاجزين .

***

وبعد فنحن فى عصر اضطراب الثقافات وارتجاج الأخلاق والمزايا لاجرم يخطر لنا أن ننظر فيما يصلح وفيما لايصلح ، وفيما تعزبه النفوس وفيما تهون ، وأن نسأل أنفسنا ماذا نأخذ وماذا ندع مما يتمخض عنه حراك الأمم والدولات .

فلنكن على يقين — سواء كنا من طلاب الحرية أو طلاب القوة — أن النخوة مطلب لا غنى عنه فى الحالتين وأننا محتاجون إليه ، وأن الخيال عدة لا محيص عنها فى المعسكرين ، وأننا نحن الشرقيين عُزّل منها ، وأن أمة من الأمم لن تصاب فى سلمها ولا فى حربها بمصاب هو أفدح عليها وأقبح بها من مصاب الانحصار فى واقعها ، لأن الانحصار فى الواقع خلة حيوانية وليس بخلة إنسانية ، وكلما ضاق أفق النفس عز عليها أن تخرج من الواقع القريب إذا أرادت الخروج منه ، ولا مناص لها أن تريد ذلك فى بعض حالاتها .

تريد ذلك لتعلو على أثرتها ، ولتعلو على ضنكها ، ولتعلو على حاضرها فى انتظار مستقبلها أو مستقبل بنى قومها ، وتريده لتشعر بأن الواقع الذى هى فيه دون الواقع الذى تبغيه .

وهذا هو الخيال الذى يرتفع بالنفس عن واقعها .

أما الخيال الذى هو ظل اللحم فى الماء فذلك هو الواقع مشوباً بالعجز والنفلة .

وأما « الواقعية » التى يقولون إنهم ينقذون الشرق بها ويردون الشرق من أحلامه إليها فحذار حذار منها .. هى داء الشرقيين أجمعين ، وإنهم لأئمة الواقعيين بين العالمين .

القدوة والإصلاح

رويت فى مقال لى كلمة الفلاح الكبير صاحب الأفدنة الكثيرة فى «حمالة الجورب» التى عابها على بعض المعلمين الإلزاميين ، وقال إنه لم يسمع بها إلا من هؤلاء المعلمين .

وقد كتب أديب فى « الرسالة » يعقب على تلك الكلمة ، ويرى أنه كان الأجدر بكاتب هذه السطور « ألا يسوق إلينا فكرة صاحب الأفدنة التى ترمى إلى إصلاح المعلم الإلزامى ، لأنه إذا سئل عن العيب الذى يراه لا يجد ما يقوله سوى أنه يعلم النشء التبطل والحذلقة ، وكيفية وضع « حمالة الجورب » وإحسان رباط الرقبة وهلم جرا . . . »

وجاءتنى رسائل شتى فى هذا الصدد ينظر بعض كاتبيها إلى ملاحظة الوجيه الريفى نظرة الفكاهة والسهولة ، ويشتد بعضهم فى الإنحاء عليها كأنها خطر على التعليم .

وعندى أن المعلم الإلزامى هو آخر من يحق له أن يكتم أمثال هذه الملاحظات أو يطلب كتمانها ، لأن التعليم الإلزامى فى اعتقادى مشتق من اللزوم قبل أن يشتق من الإلزام ، فلا يضيره أن ينكره كبير أو صغير حنقاً على حمالة الجورب أو حمالة الحطب ! . . . ولا يفهم من اختلاف الآراء فى برامجه ومواده وأساليبه أن الخلاف على أصوله وأساسه ، وإنما هو فى نهاية الأمر خلاف على الفروع والتفصيلات .

هذا سبب من الأسباب التى تأبى على المعلم الإلزامى خاصة أن يكتم ملاحظة تساق فى معرض الرأى أو فى معرض الفكاهة عن هذا التعليم .

وسبب آخر أن المعلم الإلزامى مطالب قبل غيره باستطلاع « الحالة العقلية » أو الحالات العقلية التى تتصل بمعيشة الفلاح وأبناء الريف ، وهو أحرى أن يستطلع ما يخصه ويخص عمله من تلك الحالات العقلية التى يتصدى لها فى تعليمه ، قبل أن يتصدى لتعليم الحروف والأرقام وسائر الدروس .

قيل فيما قيل عن التعليم الإلزامى وأشرنا إليه فى مقالنا السابق : « أليس الأجدى على الفلاح أن تطعمه وترفه عنه بهذه الأموال التى تنفقها على تعليمه إلزاماً وهو مفتقر إلى الطعام النافع والماء النظيف ؟ »

وكان من رأينا فى ذلك أنك إذا أعطيت الفلاح ماء نظيفاً وهو جاهل صدف عنه وعافه وآثر عليه الماء السكر لأنه ماء « دسم » يروى الأصلاب كما يروى التراب .

وقلنا « إنك إذا أنشأت فلاحاً سليم الذوق مرهف الحس مفتوح العقل مستجيب السليقة فسيجرى وراءك لتعطيه الماء النظيف والغذاء الجيد والأدوية النافعة والنصائح القويمة ، ولا يجشمك كما يجشمك اليوم أن تعدو وراءه لتقصيه عن موارد الماء السكر « بدسمه وخيره » وتدنيه من مساقى الماء المرشح وموائد الغذاء المفيد » .

* * *

ومقطع الرأى فى كل إصلاح اجتماعى — كما أحسب — أن القدوة فيه خير أنواع التعليم .

ولكن ممن تأتى القدوة فى الريف ؟

بعض إخواننا المعنيين بالإصلاح يخيل إليهم أن إقامة الوجهاء الريفيين فى قراهم وسيلة ناجعة لعميم القدوة الحسنة فى المعيشة ، وتعويد الفلاح الصغير أن يحيا فى كوخه حياة الفلاح الكبير فى القصور .

وهذا حق لو كان الفلاح الكبير قدوة صالحة فى جميع الأحوال ، أو لو كان الوجيه فى قريته مثلا يحتذى فى نظام المعيشة ومناهج السلوك .

لكننا نعلم أن الأمر لا يستقيم على هذا التقدير .

ونعلم أن كل فلاح كبير يصلح للقدوة ويتخذ مثالا حسناً للسلوك فإلى جانبه عشرة يضلون من يقتدى بهم ويأبون أن يتمثل بهم المتمثلون من الفقراء والضعفاء فيما هو من مظاهر « الوجاهة » واليسار .

قال لى أحد هؤلاء الوجهاء مرة : لقد فسد الزمان وتغير الناس !

قلت : ولم ؟

قال : إنك لا تعرف الآن ابن فلان العظيم من ابن فلان الصعلوك ، ولا تميز الفتاة التى يملك أبوها ألف فدان من الفتاة التى يعمل أبوها فى دكان أو يعمل فى ديوان بين صغار الموظفين الموقوتين . . . هذه تلبس كما تلبس تلك ، وهذا يتأنق كما يتأنق ذاك ، و « البركة » فى التقسيط لا بارك الله فيه .

قلت : ومايضيرك من ذاك ؟ إن كان فيه ضرر فعلى جيب اللابس لاعلى جيبك ، وإن لم يكن فيه ضرر فهو جمال ونظافة ورواج للقصارين والخائطين .

فتأفف وأبى أن يقتنع ، وظل يقول إن الأصول أصول ، والمقامات «محفوظة» لاينبغى أن تزول أو تحول .

وسمعنا آخرين من الوجهاء لايبالون أن يجهروا فى غير خجل ولا حرج قائلين : من يخدمنا إذا لبس الفلاح الطربوش أو اغتر بماحصل فى المدرسة الإلزامية من دروس الكتابة والحساب؟ وإذا خدمنا هذا «الأفندى» الجديد فكم يطلب أجراً على الخدمة التى كان يؤديها وهو حاف قانع باللبدة والجلباب الأزرق راض بالخبز القفار .

هؤلاء الأغبياء لايعقلون ماينفعهم ومايضرهم ولايدرون عاقبة هذا التفكير الأثيم .

والأنكأ من هذا أن الفلاح الفقير قد يحجم عن الاقتداء بنظافة الأغنياء إذا كانوا من النظفاء ، كما يحجم عن شراء السيارة والاستمتاع بالطعام الفاخر واللباس الأنيق .

فتمتنع القدوة من ثم لاعتقاد الغنى والفقير معاً أن النظافة والمعيشة الصالحة حق لصاحب المال كحقه فى ركوب السيارة الخاصة والإيواء إلى الدار القوراء .

وتقول له كن نظيفاً كفلان بك أو فلان باشا فيستكبر هذا الكلام منك ويقول لك فى جد الواثق من صوابه وسداد رأيه : وأين أنا من هذا وذاك ؟ ولواسترسل قليلا لزعم أن النظافة منه افتيات على حقوق الموسرين وخروج على الأدب الحميد ! . . .

* * *

نعود إذن فنسأل : ممن تأتي القدوة الصالحة إذا علمنا كما أسلفنا أن القدوة « الشخصية » خير وسائل التعليم فى الإصلاح الاجتماعى ؟

تأتى من بعض الأغنياء الرحماء العارفين حين يقيمون فى الريف إقامة يتصل فيها العطف والود الكريم بينهم و بين الفقراء وكم عدد هؤلاء الأغنياء الرحماء العارفين ! ؟

قليل ولا ريب ، والرجاء فى ارتقاء معيشة الفلاح الصغير أقرب من الرجاء فى زيادة هؤلاء .

فأفضل القدوة وأنفعها على هذا ما جاء من قبل المتعلمين الذين يشبهون الفلاح فى نشأته فيعمد إلى التشبه بهم غير متحرج ولا معتقد فى نفسه أنه يعدو طوره ويخرج من أفقه .

وهنا يأتي دور المعلم الإلزامى فى الإصلاح ، فيجمع بين الإصلاح بالتعليم والإصلاح بالقدوة السائغة فى رأى الفلاح ، ويروح فى القرية وهو معلم الأبناء والآباء على السواء .

كن أيها المعلم الإلزامى قدوة لمن حولك ، وكن على حال ينظر إليها الفلاح فيحب أن يتشبه بها ويرى بعينه دلائل الخير فى محاكاتها ، ثم يأنس إلى نصحك بعد ما أنس إلى عملك ، فيسمع منك القول ويحمد منك العمل . فأنت بما تهديه وتلقى فى روعه مصلح جيل لا تفلح فى إصلاحه المدرسة وحدها ، ولا الكلام الذى يجرى به اللسان أو تنطوى عليه الأوراق .

المال

قال الدكتور زكى مبارك فى حديثه عن الفقر والغنى ، ولا نهاية لحديث الفقر والغنى ، ولا الفقر والغنى ينتهيان من الدنيا .

« . . . لن أقول كلمة فى الوارثين بحجة أنهم يرزقون بلا كد ولا اجتهاد ، فلو عطل نظام الميراث لانعدم النشاط الإنساني بعض الانعدام ، ولآثر الناس جميعاً أن تكون جهودهم مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم . ولو قلنا الحق كل الحق لصرحنا بأن الميراث هو أجمل نظام عرفته الإنسانية ، فهو الشاهد على أن الجهاد فى طلب الرزق لا يضيع ، وأنه قد يصل إلى الأعقاب وأعقاب الأعقاب ، وذلك أقوى حافز لتأريث عزائم الرجال » .

ورأيي فى الميراث أنه حق وعدل ، وأن المذاهب الاجتماعية التى تحرمه تجور على الآباء والأبناء ، ولا تتحرى سنن الطبيعة فيما جرت عليه بين جميع الأحياء ، لأن المجتمع لا يستطيع أن يحول بين الأب و بين توريث أبنائه ما اشتمل عليه من عيوب الخلق والفكر ومن دمامة الوجه وشوه الجسم وضعف التركيب ؛ فليس من العدل أن يحول بينه و بين توريثهم الخير أو نصيباً من الخير ، وإن كان عدلاً أن تفرض للمجتمع حصة وافية من ذلك النصيب .

كذلك تجرى الطبيعة على سنة الوراثة فى جميع السلالات ، وهى سنة أعرق من المجتمعات الإنسانية وغير الإنسانية ، ولم تنشأ عبثاً ليلغيها الإنسان كل الإلغاء بقانون أو نظام .

لكننى أخالف الدكتور فى قوله إن الميراث لو عطل « لآثر الناس جميعاً أن تكون مقصورة على كسب القوت من يوم إلى يوم ... » .

فإن طلب المال كطلب العلم فطرة لا تتوقف على التوريث ولا على ما يعقبه

الآباء للأبناء ، وقد يهمل الإنسان رزقه ورزق أبنائه ليتابع الدرس ويتقصى مسألة من مسائل العلم والمعرفة ، وهو على يقين أنه لن يخلف لأبنائه زاداً من علومه ودروسه إلا ما يخلف المعلمون للمتعلمين ، وقد يفوتهم منه حتى هذا النصيب .

وبين طلاب المال من بلغ أرذل العمر وليس له عقب ولا هو ممن يبسطون الكف بالإنفاق فيخشى نفاد ماله الكثير ، ومنهم من لو بسط يده بالإنفاق عشرات السنين لما خشى على ماله النفاد .

أعرف رجلاً له نظراء كثيرون كان يملك القصور ويدخر الأموال فى المصارف وله معاش لا ينقطع من خزانة الحكومة ، وهو مع هذا يبخل على نفسه بالقليل ويعيش معيشة الفقراء ، ويراه الحوذية فى الطريق فيهربون منه لأنه يأبى أن يتقدم الأجر إلا على حساب ما تعود قبل أربعين أو خمسين سنة ... يوم كان المليم سعر القرش فى هذه الأيام . وأعجب العجب أن هذا الرجل الشحيح كان مجدوداً فى أوراق المصارف التى يناط بها النصيب فكان يربح جوائزها الأولى من حين إلى حين . وحدث مرة أن وكيله تسلم جائزة من هذه الجوائز وأخّر إيداعها المصرف الذى يعاملونه بضعة أيام ، فلما راجع الغنى الشحيح حسابه قطع أرباح الجائزة فى هذه الأيام القليلة من مرتب الوكيل المسكين ، وهو شىء يبذله من يربح مثل هذه الجائزة هبة لمن يحمل إليه بشارتها ولا يندم عليه .

ولم يكن لهذا الرجل عقب ولا كان له مطمع فى العيش الطويل بعد السن التى ارتفع إليها ، ولكنه يطلب المال لأن طلب المال شهوة ولا يشترط أن تتعلق بالإنفاق والتوريث .

ولو نظر الناس إلى الواقع فى أمر الورثة لما حرصوا على ترك المال بعدهم للأبناء والأحفاد ؛ فإن أبناء الفقراء الذين عاشوا فى الدنيا عيشة راضية بغير ميراث يبلغون أضعاف الوارثين عدة سواء ورثوا الكثير أو القليل ، وأن الذين أشقاهم الميراث لا يقلون عن الذين سعدوا به وحفظوه أو زادوا عليه ، وأن الذين يموتون وهم خائفون

من تبديد أبنائهم لثروتهم أكثر جداً من الذين يموتون وهم مطمئنون إلى حسن التصرف ودوام الحال .

كان العلامة يعقوب صروف ، طيب الله ثراه ، يوصيني كلما لقيته أن أدخر وأن أحسب حساب المال والثراء ، وكأنه أنس مني التواني في الإصغاء إلى هذه النصيحة فروى لي حديثاً جرى بينه و بين تاجر من كبار التجار السوريين العصاميين رآه مشغول البال معنّى بما يخشاه على ثروته وأبنائه بعد موته من تقسم و بوار . قال : وهكذا الدنيا دواليك بين جيل عصامي يجمع ، وجيل عظامي يضيع ما جمعه الآباء ، و يأتي بالمعذرة لمن يتركون الأبناء فقراء ناشطين في طلب الجاه والثراء .

قال العلامة صروف : ومنذ أيام طرق علينا الباب أبناء صاحب من أصحابنا مات فجأة وليس في الدار ما يشيعونه به إلى لحده ؛ وكان هذا الصاحب مفراحاً ، يأكل ما يشتهي و يلبس الفاخر من الثياب ، و يطعم أبناءه أحسن مطعم ، ويكسوهم أجل كسوة ، ويقضي سهراته بينهم ضاحكاً متهللاً على صينية من الحلوى أو الفاكهة وهو لا يشغل باله لحظة بما يكون ، ولا يبالي بعد موته ما يأكلون و يشربون . فأي الأبوين أسعد ؟ وأي الأبناء أحظى بحسن المصير ؟

وهذا السؤال الذي سأله الدكتور صروف سيظل أبد الزمان مسئولاً يجيبه من يشاء كما يشاء ؛ ولكنه جواب لن يجعل المفراح مشغولاً بتوريث أبنائه ، ولا المشغول بتوريث الأبناء مفراحاً ينعم بالحاضر ولا يعنّي نفسه بالغيب المجهول .

فخديعةٌ من خدائع النفس أن تعلل حرصها على المال بحب الأبناء ، ولو كان حبٌّ مانعاً أن ينفق الإنسان كل ما عنده لكان حبه لنفسه وخوفه على غده أحرى أن يمنعه و يقبض يديه ، ولكنها خديعة النفس كما نقول تتراءى لها في مختلف الذرائع والتعلات .

إنما تفسَّر أعمال الإنسان بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات . و إذا قيل لنا إن فلاناً يجمع المال لأنه يخاف عاقبة الفقر ، قلنا : ولماذا يخاف هذه العاقبة

التى لا يخافها غيره !! إنه لا يخالف غيره إلا لاختلاف البواعث النفسية دون الاختلاف فى الغايات التى قد يتفقون عليها من جانب التأمل والتفكير .

المال يطلبه الإنسان لباعث قبل أن يطلبه لغاية ، ومن بواعث طلبه الخوف والمنافسة والطموح وحب الكسب للكسب ، كما يفرح اللاعب بالرهان الذى ليس من ورائه طائل ، وهنا موضع التحذير للمصلحين الذين يعالجون مسألة الغنى والفقر على أساس الأرقام والقواعد الاقتصادية ويغفلون علاجها على أساس الشعور والبواعث النفسية . فأنت إذا أعطيت الفارس قصبة السبق قبل دخوله الميدان لم ترحه ولم تعطه مايريد ؛ وإذا منعت المتنافسين أن يتنافسوا لأنك ضمنت الرزق لأبنائهم أو ضمنت الأمان لهم فى عقباهم لم تستأصل أسباب التنافس ولم تعطهم الحياة التى جعلتهم يتنافسون .

إنما الواجب أن ندع الناس يطلبون المال كما يطلبون العلم أو يطلبون الجاه أو يطلبون السرور أو يطلبون الفرص النادرة والمقامر المجهولة ، وليس علينا أن نسألهم لماذا يطلبونه ، وإنما علينا أن نمنعهم إنفاقه فيما يضير الآخرين ، فغاية ما يحق للمجتمع فى هذا الصدد أن يحرم الغش والجور وتخويل أناس بغير حق مايحرمه غيرهم من العاملين.

كان أوليفر لودج عالماً رياضياً من الطراز الأول ، وكانت له بحوث مشهورة فى مخاطبة الأرواح وما وراء المادة ، وربما انصرف أحياناً من الرياضيات والروحيات إلى المباحث الاجتماعية وشئون الثروة والسياسة ، ولكنه كان يأتى فيها إذا انصرف إليها بمقطع الرأى وفصل الخطاب، لأنه بعيد من الهوى والتشيع لهذا المذهب أو ذاك .. فمن نصائحه فى هذا الباب أن تتولى الدولة مراقبة المال كما تتولى مراقبة السلاح ، لأن الخطر من سوء استخدام المال لايقل عن الخطر من سوء استخدام السلاح ، وربما ظهرت جريمة السلاح بعد اقترافها بقليل ولقى صاحبها من الجزاء ما فيه عبرة لغيره ؛ أما جريمة المال فقد ينقضى العمر وهى خافية ؛ وقد يقترفها أناس بعيدون من الشبهات لأنهم ليسوا من حثالة الخلق الذين يعتدون بالخناجر والمسدسات .

فإذا وجبت مراقبة المال فى أيدى المسيطرين به على سواد الناس فمن الواجب أن تكون الرقابة على النحو الذى قصد إليه الرياضى الكبير ، ولاسيما فى العصر الذى أصبح المال فيه مرادفاً لمعنى الثقة والائتمان ، فلا يجوز فى هذا العصر أن توضع الثقة الاجتماعية فى أيدى أناس يعبثون بها جهرة أوخفية ، ولا يجوز إذا هى وضعت فى بعض الأيدى أن تترك هملا بغير رقابة أو حيطة أو بغير علم بما تتجه إليه وتجرى فيه .

وهنا نسأل : ما هى حدود الرقابة الاجتماعية على سيطرة الأموال فى أيدى الأفراد أو الجماعات التى تسوس أموال الأفراد ؟

وجواب هذا السؤال أن الرقابة الوحيدة الممنوعة هى الرقابة التى تشل الدوافع النفسية والبواعث الحيوية وتخرجها فى نظامها مخرج الجهود الآلية والأرقام الحسابية فإن المجتمع الإنسانى لن يكسب شيئاً من تنظيمه النفوس تنظيم الآلات التى تتحرك بأمر وتسكن بأمر ولا تتخطى مايرسم لها من الخطوط والغايات .

فللمجتمع أن يراقب المال وأن يأخذ نصيبه منه للمصلحة الاجتماعية التى يشترك فيها الأغنياء والفقراء ، ولكن ليس للمجتمع أن يمسخ الطبيعة ويجور على حركات النفوس وبواعث الحياة لأنه يتعرض بالقوانين لأمر لم تخلقه القوانين ، ويأخذ ماليس فى وسعه أن يرده أو يعوضه بمثله .

الزوجة المثلى

وصلت إلىّ محاضرة العالم الفاضل الدكتور عبد المعطى خيال عميد كلية الحقوق بالاسكندرية فى موضوع « الزوجة المثلى » ، وفيها يقول ما فحواه إن الآفة كلها هى : «حرص الشباب على المادة ، وجريه وراء الكسب ، وحظه من القيم التى خلفها السلف الصالح ومن قواعد الأخلاق التى كانت مقررة عندهم ، واكتفاؤه بالعاجل من اللذات »

وظهر فى « الرسالة » مقال صديقنا الأستاذ الزيات الذى يعقب به على خطاب السيدة « ليلى » ، وما رأته من أن السبب المباشر والمصدر الأول لمشكلة الزواج هو المادة ، وكان ختام مقاله : « إن المال إذا جعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته ولمن فقدته على السواء . . . »

وعندى أن المادة هى آفة العصر الحديث كله ، وفى عداد مشاكله الكبرى مشكلة الزواج . فالناس لا يتهالكون على المادة ولا على اللذة العاجلة إلا إذا قلّ إيمانهم بالحياة . ومن ثم يغلب الشح على الشيوخ والضعفاء ، كما يغلب على الشعوب التى ضاعت من أيديها السيادة وقيم الحياة العليا . فكل تهالك على المادة إنما هو بديل من الحياة الصحيحة ، أو من الثقة بنفاسة الحياة ، وكأنما يقول الإنسان لنفسه : علام الصبر والانتظار والإرجاء ، وأى ضمان لك من الأخلاق والعواطف وهى هباء ؟ إنما ضمانك الوحيد المادة التى فى يديك ، والمنفعة التى تسوق غيرك إليك ، وكل ما عدا ذلك فهو فضول لا يجدى شيئاً عليك .

لكن الزواج مشكلة كبرى ، ولو خلص الناس من آفات العصر ومشكلاته ومن ولع الشباب بمآربه ولذاته .

الزواج مشكلة لأنه يحاول التوفيق بين نقائض كثيرة فى الطبيعة الإنسانية ، ولا يقتصر أمره على التوفيق بين فردين .

فمن الناس من يظن أن الزوجة المثلى هى المرأة المثلى ؛ وهـذا فى اعتقادنا خطأ ظاهر يتكشف بقليل من الرويّة .

لأن المرأة المثلى من شأن الطبيعة .

أما الزوجة المثلى فمن شأن المجتمع والآداب الإنسانية حسبما تتعاقب بها الأزمان .

وقد تكون المرأة أنثى طبيعية من الطراز الأول فى تكوين الأنوثة ؛ وليس من اللازم بعد هـذا أن تكون زوجة من الطراز الأول فى معاشرتها لزوجها وفى أمومتها أو فى رعايتها للآداب وقيودها .

وقد تكون المرأة زوجة مُثلى فى البيت والأمة ، ومع الزوج والولد ، ولايلزم من ذلك أن تبلغ فيها الأنوثة الطبيعية تمامها .

وتنجلى هذه الحقيقة بعض الجلاء إذا تذكرنا أن الحيوان فيه إناث مثليات فى عرف الطبيعة ، وليس فيه زوجات مثليات على النحو الذى يتطلبه الإنسان .

وهنا مشكلة ليست بالهينة من مشكلات الزواج ، لأنها مشكلة التوفيق بين ما توحيه طبيعة الأنثى ، وبين ما تمليه آداب المجتمعات ، وهما شيئان لا يتفقان كل الاتفاق .

ويفهم بعض الناس أن الزوجة المثلى هى التى ترضى الرجل ، وأن الزوج الأمثل هو الذى يرضى المرأة .

وهذا خطأ آخر من أخطاء الآراء فى هـذا الموضوع ، ويكفى أن نسأل : ما هو غرض الزواج ؟ ليكون الجواب تصحيحاً سريعاً لهذا الخطأ المشهور .

الزواج مقصود لأنه وظيفة اجتماعية ونزعة إنسانية ، ويصح أن يتم أداء هذه الوظيفة بمضايقة الزوجين معاً أو بمضايقة زوج واحد منهما ، كما يصح أن يتم أداؤها بما يرضى أحدهما أو كليهما ، فلا غرابة من أجل هذا أن تبر الزوجة المثلى بعهد الزواج وهى لا ترضى الرجل كل الإرضاء فى كل حين . وأن يبر الزوج الأمثل بذلك العهد وهو مكره على إغضاب حليلته التى يتوخى لها الإرضاء والإيناس .

وهنا مشكلة ليست بالهينة كذلك من مشكلات الزواج ، لأنها مشكلة التوفيق بين الهوى والواجب ، أو بين النظر القريب والنظر البعيد ، وهى المشكلة الخالدة فى حياة الإنسان .

* * *

ومن المشكلات فى هذا الباب أن الزوج الأمثل لامرأة لا يلزم أن يصبح زوجاً أمثل لامرأة أخرى . فالرجل فى الأربعين زوج أمثل لامرأة فى حدود الثلاثين ، والرجل الذى فيه صلابة زوج أمثل للمرأة التى فيها شكاسة، والرجل الحليم المتئد زوج أمثل للمرأة المتعجلة الرعناء ، ولكنهم يختلفون ولا يتوافقون هذا التوافق ، فإذا هم أسوأ الأمثلة للأزواج وأقلهم أملا فى الرفاء والوفاء .

* * *

والبيت مشكلة المشاكل فى العصر الحديث .

ففى العصور الماضية كانت المسافة قريبة جداً بين العالم البيتى والعالم الخارجى ، وكانت الملاهى الخارجيـة أشبه شىء بملاهى المنادر فى البيوت مع قليـل من التوسع والتعميم . فلم يكن من العسير أن تتفق معيشة الأسرة ومعيشة المحافل الساهرة ولو كانت محافل لهو وانطلاق .

أما اليوم ، فالمسافة بعيـدة جداً بين عالم البيت والعالم الخارجى ، لأن المناظر التى يراها الساهر فى العالم الخارجى لا يراها فى بيته ولو كان من أهل السعة واليسار ، و إنما نشأ هذا عن اختراع الآلات التى تعمل للألوف وألوف الألوف ولا تقصر عملها على جماعات من النـاس يعدون بالعشرات كما كانت محافل اللهو فى العصر القـديم . وليس من المعقول أن تنفق الشركات مليون ريال على منظر سينماء يدار فى مندرة أو بهو أو قصر كبير بضع ساعات ؛ ولا نعرف اختراعاً من هـذه الاختراعات يوافق الحياة البيتية غير المذياع الذى يسهل اقتناؤه فى الصغير والكبير من البيوت ، وهو وحده لا يغنى عن سائر الألفانين التى تتنوع فى محافل السهرات .

فالبيت فى العصر الحديث مهدد الأساس ، ولا وقاية له من هذا التهديد إلا الإقلال من العواصم الكبرى وتشجيع الإقامة فى الريف ، وإلا تربية الذوق المستقل الذى يصعب انفعاله فى غمرة الجماهير ، وتربية الإرادة الفردية التى يهمها أن تنطوى على نفسها حيناً بعد حين ، ويعجبها أن تنعم بالعشرة الأخوية بين الصحب المتفاهمين والأقارب المتعاونين ، فوق إعجابها بضجة السواد وزحام القطيع .

وليس ما نذكره هنا حلولا لمشكلة الزواج ولا علاجاً حاسماً لآفات العصر الحديث ، ولكنه محاولة لفهم المشاكل على حقيقتها لا غنى عنها وعن أمثالها قبل الرجاء فى علاج ناجع ؛ إذ كل علاج لا يسبقه الفهم الصحيح يقع على غير الداء ، وقد يضاعف الأذى ولا يدنى من الشفاء .

***

إلا أننا نعتقد أن الحلول جميعاً لن تخلى الزواج من عقدة مؤرّبة باقية على الزمن كله ، لأنها قائمة على طبيعة فى النفس الإنسانية لا يرجى لها تبديل كبير .

تلك العقدة هى غرابة الأسرار الجنسية التى تدفع بالرجل إلى اختيار المرأة ، وتدفع بالمرأة إلى اختيار الرجل . فليس لزاماً أن يحب الرجل امرأة تستحق حبه ، أو تصلحه وتصلح أبناءه ، أو تجد فيه مزية كالمزية التى يجدها فيها ؛ بل يتفق كثيراً أن يترك المرأة التى تسعده ويتعلق بالمرأة التى تشقيه ، ويتفق كثيراً أن يهواها للأسباب التى توجب عليه اجتواءها والإعراض عنها . وشأن المرأة فى هذه الخليقة أعجب من شأن الرجل وأنأى عن الرشد ودواعى الاختيار المميز البصير ؛ فإن إخلاصها لمن يستحق منها الإخلاص أندر من إخلاصها لمن يفسدونها ويسيئون إليها ، وهى خليقة لها أسرار أعمق من عرف المجتمع وآداب الزواج وأواصر الأهل والأسر ، وليس بالميسور مع بقائها فى الطباع خلو الزواج من المشكلات .

ولكن الطبيعة تهدينا إلى بعض الأسرار ، كما تخفى عنا كثيراً من الأسرار ، وحسبنا أن نقتدى بها فى أساليبها لننتهى إلى شىء فى هذا الباب خير من لا شىء .

فإن أساليبها فى علاقة الجنسين تجرى فى نهجين مطردين لا يختلفان بين الإنسان وسائر الحيوان ، وإن اختلفت فى الحيوان العاقل بعض المظاهر والغايات .

أول هذين النهجين هو مزج الواجب بالسرور ، فلا يخدم الإنسان النوع بإدامة النسل أو بالإصلاح والإرشاد إلا وفى خدمته سرور له يقوّيه على واجبه ويغريه باحتماله .

وثانى هذين النهجين « التوريط » الذى يقيد الإنسان حين يريد الإفلات فلا يقدر على الإفلات ، لأن مصاعب النجاة من الحالة التى يعانيها أكبر من مصاعب الصبر عليها بعد وقوعه فيها . وخير الأمثلة على ذلك كفالة الأبناء ومتابعة السعى فى سبيل المجد من مرحلة إلى مرحلة ، وقد كان الساعى فيه يحسب أنه مستريح بعد المرحلة الأولى .

وتلك هداية لا يعدم الفائدة من يتوخاها فى علاج جميع المشكلات .

ما يمكن تبديله

عقب أحد الأدباء على ما كتبناه فى « عبقرية محمد » عن رواية النبى عليه السلام للشعر وقال : (. . . فى ص ١٤٤) يذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله . فكان يقول مثلا : « ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد » لأنها لا تقبل التبديل ، ولكنه إذا نطق يقول سحيم بنى الحسحاس : « كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا » قدم كلمة الإسلام فقال : « كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا » .

ثم يعقب الأديب فيقول : (وتقسيم ما يتمثل به الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ما يمكن تبديله لم يورد المؤلف مايؤيده ويقتضيه . والمثال الذى ذكره لما لا يمكن تبديله غير صحيح ، فإن تبديله ممكن ، وقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام تمثل به هكذا : « ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار » . راجع السيرة الحلبية فى باب الهجرة إلى المدينة) .

* * *

والذى نعقب به على تعقيب الأديب هو الكلام فيما يمكن تبديله من الشعر والنثر وكل ماله معنى من القول .

فإذا كان المقصود بالتبديل هو نقل كلمة فى موضع كلمة بغير نظر إلى المعنى والسياق فالتبديل ممكن فى كل كلام بلا استثناء ؛ إذ ليس للكلام قوة مادية تمنعك أن تقدم فيه وتؤخر كما تشاء ، وفى وسع كل قارىء أن يعمد إلى كتاب من الكتب فيقرأه عكساً وطرداً ، ومن أسفله إلى أعلاه ، ويضع الأول فى موضع الوسط والوسط فى موضع الأول ، ثم يعود فيصنع به مثل ذلك إلى غير انتهاء ، فلا يستعصى عليه عصى ولا يحول دونه حائل .

وليس هذا بالبداهة هو التبديل المقصود حين نقول بإمكان التبديل أو استحصائه وإنما المقصود هو التبديل مع بقاء المعنى وبقاء المزية الكلامية أو المزية البلاغية التى من أجلها كان الشعر أو النثر مستحقاً لروايته والاستشهاد به .

وكثير من المعنى ومن المزية البلاغية يتوقف على تقديم كلمة إلى موضع أخرى حتى فى العبارة التى لا تتجاوز كلمتين أو ثلاث كلمات .

فالعالم زيد غير زيد العالم ، وما اختلف منهما إلا تبديل موضع الكلمتين .

لأن « العالم زيد » قد تفيد أنك تخص زيداً بالعلم وتنفيه عن غيره ، وليس هذا مستفاداً من « زيد العالم » على هذا الوجه .

وقد شرح علماء البلاغة دلالة التقديم والتأخير وعرض لها الإمام الجرجانى فقال مما قال فى دلائل الإعجاز : « . . . إنه قد يكون من أغراض الناس فى فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه ، كمثل ما يعلم من حالهم فى حال الخارجى يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى ، إنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ولا يعنيهم منه شىء ، فإذا قتل وأراد مريد الأخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجى فيقول : قتل الخارجىّ زيدٌ ، ولا يقول قتل زيد الخارجى ، لأنه يعلم أن ليس للناس فى أن يعلموا أن القتل له زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم ويعلم من حالهم أن الذى هم متوقعون له ومتطلعون إليه . متى يكون وقوع القتل بالخارجى المفسد وإنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه ... » إلى آخر ما قال .

على أن الحكمة فى التقديم والتأخير معنى من معانى العقل والمنطق وليست بقاعدة من قواعد اللغة وحسب .

ولهذا ينص عليها فى جميع اللغات ولا يقتصر التنبيه إليها على لسان دون لسان .

فالإنجليز مثلا ينبهون إلى الفرق بين معانى العبارات إذا تغير موضع كلمة واحدة فيها ، ويمثلون لذلك بأمثلة كثيرة منها هذه الأمثلة الأربعة :

١ — أنا « فقط » أتحدث بهذه القصة إلى فلان .

٢ — أنا أتحدث فقط بهذه القصة إلى فلان .

٣ — أنا أتحدث بهذه القصة فقط إلى فلان .

٤ — أنا أتحدث بهذه القصة إلى فلان فقط .

فالفرق بعيد جداً بين كل عبارة من هذه العبارات و بين سائرها لتغير الموضع الذى توضع فيه كلمة واحدة .

لأن العبارة الأولى معناها أننى وحدى أتحدث بهذه القصة إلى الشخص المذكور والعبارة الثانية معناها أننى أتحدث فقط ولا يصدر منى شىء غير الحديث ، وقد يتحدث به غيرى كذلك .

والعبارة الثالثة معناها أننى أتحدث بالقصة فقط إلى فلان ، ولا يتعدى التخصيص ذلك ، فكل ما عدا هذا التخصيص فهو عام لا تقييد فيه .

والعبارة الرابعة معناها أن المتحدث إليه هو فلان فقط وليس إنساناً غيره ، ولا تخصيص للقصة ولا للمتحدث ولا للحديث .

وتبديل الموضع الذى توضع فيه كلمة فقط ممكن جداً لكل من أراده ، ولكن المهم هو المعنى الذى يترتب على هذا الإمكان . فإن كان المقصود أن نحافظ على معنى لا يتغير فالتبديل مستحيل أو كالمستحيل ، و إن لم يكن هنالك معنى مقصود فبدل وقدّم وأخر كما تشاء .

* * *

ونأتى إلى الأبيات التى نطق بها النبى عليه السلام فننظر ماذا كان يترتب على التبديل فى مواضع كلماتها ؟

إن منها لأبياتاً لا يتغير منها شىء غير الوزن كالبيت الذى أنشده عليه السلام حين قال للعباس بن مرداس أأنت القائل :

أصبح نهبى ونهب العبيـ ـد بين الأقرع وعيينة ؟

فإن البيت موزون على قول الشاعر :

وأصبح نهبي ونهب العبيـ ـد بين عيينة والأقرع

ولا فرق بين الوضعين إلا كالفرق بين قولك إن طنطا واقعة بين القاهرة والإسكندرية ، وقولك إنها واقعة بين الإسكندرية والقاهرة ، أو كالفرق بين قولك إن زيداً يجلس بين بكر وخالد ، وقولك إنه يجلس بين خالد وبكر .

فهل الفرق بين قول الشاعر « ويأتيك بالأخبار من لم تزود »

وقولنا « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » هو فرق من هذا القبيل ؟

إن كان الفرق من هذا القبيل فالتبديل ممكن ، وإن لم يكن كذلك فهو مستحيل أو كالمستحيل .

والمفهوم الذى لا يغيب عن سيد الفصحاء هو أن المعنيين مختلفان .

فالمفهوم من قول الشاعر أن الأخبار هى المقصودة ، وأن الشاعر يورد قوله على سبيل الاستغراب أو التحدث بالغريب الذى لا ينتظر فى الأغلب الأعم أن يكون : تسمع الخبر الذى تنتظره من مسافر لم تودعه ولم تحفل بسفره ولم تنتظر إيابه ، وهذه هى الغرابة ! وهذا موقع التنويه والاستشهاد .

أما قولنا : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » فهو شىء آخر فى معناه ، أو هو شىء لا يستشهد به فى الموقع الذى عناه الشاعر .

فنحن لا نزود التاجر المسافر بزاد ولكنه يعود إلينا من السفر بالبضائع والتحف ولا نستغرب ذلك ، إذ لا وجه للغرابة فى أن يسافر المسافر ولا تزوده ثم يعود إليك بشىء من الأشياء . أما أن عنيت غرابة الأمر ، وعنيت الأخبار خاصة فلا بد من التقديم ومن إظهار ما يفيد هذه الغرابة .

وهذا فضلاً عن التباس آخر فى قولنا : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » .

إذ يحتمل أن يفهم السامع أن المقصود : «من لم تزوده أنت بالأخبار» ثم ينتظر تتمة الكلام .

ولا وجه لهذا الالتباس إذا لم يتبدل موضع الكلام .

فتبديل مواضع الكلمات ممكن إذا نحن لم نحفل بهذا الالتباس وممكن إذا نحن تركنا المعنى الذى من أجله نظم البيت واستحق أن يروى فى مقام الاستشهاد ، وممكن إذا صرفنا النظر عن كل معنى وكل مقصد .

ولكنه مستحيل أو كالمستحيل إذا أردنا المحافظة على معناه . وهو فرق واضح لا يغيب عن سيد الفصحاء كما أسلفنا ، ولهذا رجحنا الرواية الغالبة ولم نكترث لغيرها من الروايات ، ولهذا كان ينبغى للأديب المعقب أن يتريث طويلا قبل أن يجزم ويتحقق أن قولنا « لا يمكن تبديله غير صحيح » ففير الصحيح هو ما قال وما قالته كل رواية توهم أن محمداً عليه السلام قد غاب عنه الفرق الواضح بين الروايتين .

***

وما دمنا بصدد التعقيب على كتاب « عبقرية محمد » فلنذكر تعقيباً سمعناه من المذياع لطالب نجيب من طلاب الجامعة كان يتحدث عن هذا الكتاب ... فقد أشار إلى كلامنا عن موت إبراهيم بن النبى عليه السلام حيث نقول : « مات ذلك الطفل الصغير ومات ذلك الأمل الكبير : مات كلاهما والأب فى الستين . . . أى صدمة فى ختام العمر؟ أى أمل فى الحياة ؟ الدين قد تم وهذه الآصرة قد انقطعت ، فليس فى الحياة ما يستقبل ويُنتظر : كل ما فيها للإشاحة والإدبار » .

ثم عقب الطالب النجيب بما فحواه أن هذا يأس يتنزه عنه مقام الأنبياء .

وكل ما نجيب به أن هذا ليس بيأس يتنزه عنه مقام الأنبياء ، وإنما هو علم بأن الحياة قد أصبحت للإشاحة والإدبار ، ومحمد عليه السلام كان يقول « إن معترك المنايا بين الستين والسبعين » فلا يأس فى انتظاره إدبار الحياة بعد الستين .

إنما اليأس الذى يتنزه عنه مقام النبى أن ييأس من أداء الرسالة التى بعث بها إلى الناس ، وهذه قد تمت يوم مات إبراهيم ، فلا يأس فيها ، ولا حرج أن يقبل النبى بعدها على أخراه . وما قلنا عن محمد عليه السلام بعض ما قاله بلسانه الشريف حين قال إن ما به من موت إبراهيم ليهد الجبال . ثم استرجع . وما يكون الاسترجاع إلا أن يذكر الإنسان فى كل عمر أنه تارك الحياة وراجع إلى الله !

الحق المجرد

عجب صديقنا الأستاذ الزيات لابن آدم « المخلوق الوحيد الذى يرى الشىء الواحد بعينيه الاثنتين أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذى يلونه به الهوى » .

وضرب لذلك أمثلة شتى ، منها أن راديو بارى أذاع منذ ليلتين أن فريقاً من الطلاب الهنود تظاهروا فى بمباى فاعترضتهم فئة من الشرطة الإنجليز فتفرقوا فى شوارع المدينة أباديد بعد أن أصيب نفر منهم بجروح ، ثم عقب المذيع على هذا الخبر بأن الاعتداء على المتظاهرين بالضرب ينافى المدنية ، ويجافى الخلق ، ويصم الذين ارتكبوه بالقسوة الوحشية والبربرية الأثيمة . ثم أعلن المذيع فى هذه الإذاعة نفسها أن مليوناً من جنود المحور قد اقتحموا بالدبابات الثقيلة والطيارات المنقضة والسيارات المدرعة منازل ستالينجراد على الروس وفيهم النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، فدكوا كل بناء ، وسحقوا كل حى ، وركموا أشلاء القتلى فى الحجرات والطرقات على صورة لم يرها الراءون ولم يروها الراوون . ثم أخذا هذا البوق البشرى يهذى بفضل هذا النصر على المدنية ، وينوه بعظيم أثره فى مستقبل الإنسانية » .

وأتى الأستاذ بأمثلة متعددة فى هذا المعنى تؤيد شقاء الإنسانية بين العقل والهوى .

وإنه لشقاء باق لن يزول أبداً ، ولن يزال الهوى يرينا الشىء شيئين واللون لونين ما دمنا نحس ونرى ، وقد

أعمى الهوى كل ذى عقل فلست ترى
إلا صحيحاً له حالات مجنون

وهذا نقص لا ريب فيه .

وقد تناوله صديقنا الزيات من هـذه الناحية فأبرزه فى صور الحيـاة اليومية التى لايخطئها من يرقبها .

فهل هو نقص لا يوازنه جانب كمال ؟ وهل هى آفة لاعزاء فيها لبنى آدم ؟ وهل نغير ما طبعنا عليه من هذه الخليقة بما طبعت عليه سـائر المخلوقات من توافق وتشابه حالات ؟

مصيبتنا أننا لانستطيع !

لأن الإنسان لاينقص إلا من حيث يزيد ، فهو يعرف الخطأ لأنه يعرف الصواب ويختل فى هندسته من حيث يتقن النحل هندسته كل الإتقان ، لأنه أعلم بالهندسة من النحل لا لأنه أجهل منه بفنونها وأنواعها . . فهو يشترى الخطأ بثمن ، لأنه لايشترى الصواب إلا مخلوطاً به ، مضافاً إليه .

نحن نرى الشىء أشياء لأننا نرى .

أما سائر المخلوقات فهى لاترى إذ تنظر بعينيها ، وإنمـا الأصح أن يقال إنهـا تلمس الأشياء بالعين على نحو من اللمس بالأيدى ، فلاتقبل عندها التعدد والاختلاف .

وهكذا الآدميون الذين يشبهون تلك المخلوقات .

إنهم يلمسون الأمور بأعينهم كما يلمسونها بأيديهم ، ولكنهم لا يرونها متعددة الحالات ، متعددة الألوان ، متعددة الوقع فى الخواطر والأهواء ؛ وإن تعددت عندهم قليلا فهو أقرب تعدد إلى التوحيد .

كنت أقول لبعضهم والألمان يدخلون باريس : إنهم سينهزمون .

وكنت أقول لبعضهم والألمان يتقـدمون فى الأراضى الروســـية : إنهم سينهزمون .

فكانوا يقولون : ولكننا نرى أنهم سينتصرون لأنهم منتصرون . . . فأقول لهم :

ما هـذا برأى . هذا لمس بالعين . هـذا ما تبصرونه كما تبصره كل عين حيوانية تفتح أجفانها ، و إنما الرأى غير هذا . الرأى ما يبصرك بالانهزام وأنت تنظر إلى النصر الملموس فإن لم يفدنا الرأى هذه الفائدة فلا خير فيه ، ولا حاجة بنا إليه مع وجود العيون والأجفان ، إذ حسبنا بالعيون والأجفان أن تفتحها فنلمس بها ، ثم لا نفكر ولا نرى خلاف ما تبديه .

وهكذا يبصر الإنسان وجوه الرأى لأنه لا يرى الشيء على حالة واحدة ولا يستوفيه كله فى صورة حاضرة .

فهو يبصر وجوه الرأى فى الضرب مثلا لأنه يحسه لذيذاً فى حين ومؤلماً فى حين ولا يحسه فى بعض الأحايين .

يحسه لذيذاً حين يكون هو الضارب ، ويحسه مؤلماً حين يكون هو المضروب ، وليس يحس له لذة ولا ألماً حين لا يكون ضارباً ولا مضروباً ولا شأن له فى الحالتين .

ومن العسير عليه جداً أن يعرف ما هو الضرب إذا عرفه على وجه واحد ، ولم يعرفه على شتى الوجوه .

ومن البعيد جداً أن يراه بالحق إن لم يره بالهوى على اختلافه ، فيحبه و يبغضه و ينظر إليه بين الحب والبغض ، و « يراه » بعد ذلك مستجمعاً لجميع هذه الوجوه .

وهذا هو باب الكمال فى تعدد الأهواء وتعدد الحكم على العمل الواحد إذ نعمله نحن و إذ يعمله الخصوم ، و إذ يعمله من ليس من الخصوم ولا من الأصدقاء .

وكل صورة من صوره هذه تمام لغيرها ، ولا سبيل إلى التمام فيها بغير هذا التعديد .

يقولون فى الصعيد : إن نواتياً سمع مضغاً قوياً فى مخزن الخبز الجاف من سفينته فأشفق من نفاد المؤونة فى الطريق وصاح مغضباً : من هذا الذى يقضم فى الخبز قضم الحمار ؟

فقيل له ابنك حسن !

قال : اسم الله عليه ! أهو الذى يقرش هكذا قرش الفوير ؟

والرجل قد صدق بعض الصدق فيما سمع من قضم حمار ومن قرش فوير ، فإن أكل ابنه من الخبز يسره ولا يؤذيه ، وإن انطلاق الغريب عليه يؤذيه ولا يسره . ويبقى أن يسمع المسافر الذى لا يسمع حماراً ولا فويراً ، ولكنه يسمع الصوتين على حسب ماعنده من الزاد .

وما أعجز الإنسان أن يتبين حقيقته بهذا الصغر وبهذه البساطة ما لم يسمع من جانب مخزن الخبز صوت حمار وصوت فأر وصوت إنسان .

هذا نقص فى خليقة بنى آدم يؤدى إلى تمام .

وإنما هو نقص دائم إذا وقف حيث هو ولم تجتمع صوره الكثيرة فى صورة واحدة ، هى أدنى إلى الصدق وأبعد من الهوى وأوسط فى الرأى بين مختلف الآراء .

وذلك هو النقص الذى يحبه جماعة من أصحاب المذاهب الاجتماعية ويفرضون دوامه ويحضون على الاقتداء به فى فهم التاريخ ، ونريد بهم الشيوعيين .

فهم يجعلون الهوى فرضاً لزاماً فى معالجة كل حقيقة من حقائق الحياة .

ويكتبون التاريخ فيذمون من لا يستحق الذم ، ويثنون على من لا يستحق الثناء ، لأنهم يستوحون المصلحة الشيوعية ، ويعلمون أن الخروج من هوى المصلحة فى تقدير الأمور مستحيل .

فأما أنه مستحيل فلا ، لأن الإنسان يعرف الفرق بين صوابه وهواه ، وإن أحب هواه وآثره على الصواب .

فإذا كانت له قوة خلق تصحب المعرفة غلب الهوى بالجمع بين معرفته وقوة خلقه ، وأصبحت مصلحته تابعة لما يلزمها من جادة قويمة فى رأيه .

ولكن الشيوعيين لا يغلبون هوى المصلحة ، لأن الخروج منه مستحيل ، وإنما يغلبونه لأن تغليبه نافع لهم فيما يقدرونه ويفسرون به الأمور .

ولا نقول : إن الشيوعيين وحدهم يغلبون الهوى فى تفسير التاريخ وتصوير الحقائق ، فهذه خليقة شائعة بين جميع الناس ملحوظة بين أصحاب المذاهب بلا استثناء .

ولكننا نقول : إن الشيوعيين وحدهم هم الذين جعلوا ذلك فرضاً لامناص منه ولم يجعلوه عيباً يصححونه ويخجلون من إعلانه .

وهذا هو الفارق الكبير بين الرأيين .

فعلينا أن نعترف بالهوى ولا نجهل صنيعه فى أفاعيل الأمم والأفراد ، ولكن علينا أن نغالبه ما استطعنا كلما عرفناه واقتدرنا عليه .

وهذا هو الواجب فى كل عيب من العيوب ، أيا كان سببه وأيا كان الناظر إليه .

فأذكر أن « برتراند رسل » الفيلسوف الرياضى الباحث الاجتماعى الكبير قد أشار فى بعض كتبه بإباحة العلاقات بين الفتيان والفتيات « بغير بنين » ليتم لهم اختبار الحياة الجنسية قبل الاضطلاع بتبعاتها ، ولأن المنع رياء ما دامت الإباحة قائمة فعلا وإن سترت من أعين المجتمع والشريعة .

فأما اختبار الحياة الجنسية فليست الإباحة سبيله الوحيد ، وليس الزواج بعلاقة جنسية وكفى فيكون اختباره من طريق ذلك الانطلاق .

وأما أن الإباحة مطلوبة ما دامت حاصلة ، فهذا الذى يشبه عندنا مذهب الشيوعيين أن الهوى مفروض مادام من عادات بنى آدم .

فالسرقة موجودة ولا نعالجها برفع العقوبة عنها ، والسقم الذى يأتى من الطعام موجود ولا نعالجه بتسويغ الطعام المسقم للأبدان ؛ وإنما وجود هذه الآفات هو

الذى يدعونا إلى محاربتها واستئصالها ؛ إذ نحن لانحاربها وهى معدومة غير مكروهة الوجـود .

* * *

هو الهوى إذن نقص فى طبيعة الإنسان تميز به بين المخلوقات لأنه طريقة إلى التمام.

فلانرميه ولا ندخره ، ولـكننا نتناوله بضاعة للاستبدال كلما تسنى لنا أن نبدل به بعض الصواب .

وهوى واحد لايصلح ثمناً مقبولا فى هذه التجارة .

ولـكن خمسة أهواء متقابلات هى أصلح الأثمان للمقايضة فيهـا ، فليس أثمن بأضعاف الهوى من تعدد الأهواء .

أيشقينا ذلك التبديل والاستبدال ؟

نعم لامراء . . . ولـكن من الذى قال إننا خلقنا لنسعد ؟ ومن الذى قال إن السعادة فى استئصال الأهواء ؟ لم يقل ذلك أحد ؛ وإن قاله لم يحفله سامع ولم تزل دنياه ماضية فى شقائها وسعادتها وهواها .

حول ما نكتب

علقت صحيفة « البورص إجبسيان » على ما كتبناه فى موضوع الشيوعية فقالت بعد تلخيص رأينا فيها : « ... وأن الأستاذ العقاد اينظر إلى الشيوعية فى لون قاتم وهى ما زالت على حسب سياسة ستالين فى دور الكشف والظهور ، فلا تعرف على التحقيق إلى أى طريق تسير فى تطبيقها العملى بعد تجاربها فى السنوات الأخيرة فقد أنشأ نظام الأسرة فيها يتكون ثم المدرسة ثم الأخلاق ثم الاعتراف بتفاوت الدرجات والرجوع أخيراً إلى الدين ، وكل هذا معناه أن الشيوعية الحالية ليست إلا إسماً مسمى وإن هى فى حقيقتها إلا اشتراكية مستنيرة » .

وهذا التعليق فى رأينا هو أقرب إلى التأييد والتوكيد ، منه إلى المناقضة أو التفنيد .

لأن معناه أن ستالين يخالف الشيوعية التى ننكرها ولا يدين بقواعدها التى بسطها كارل ماركس وشرع فى تحقيقها لينين .

ومعناه من جهة أخرى أن الشيوعية فى تطبيقها تخالف الشيوعية فى أصولها النظرية ، وأنها من أجل ذلك مذهب لا يصلح للتنفيذ فى الحياة العملية .

وقد اضطر ستالين فعلا إلى الاعتراف بتفاوت الدرجات والأجور ، واضطر إلى التسليم للأسرة ببعض الحقوق وقبول الملكية فى وضع من الأوضاع ، ثم انتهى خلال الحرب الحاضرة بتعظيم فضيلة الوطنية التى كانت فى عرف كارل ماركس وأصحابه لعنة من لعنات الاستغلال ، وحيلة من حيل أصحاب الأموال ، فهو وأعوانه يسمون الحرب الحاضرة بالحرب الوطنية وحرب الدفاع عن الديار ، لأنهم علموا أن اسم الشيوعية وحدها لا يشحذ همة الشعب إلى النضال ولا يغنى عن نخوة الوطن والعصبية القومية .

فاضطرار الأقطاب الشيوعيين إلى العدول عن بعض قواعدها الأولية يؤيد مانقول ، ولا ينفى أنها مذهب غير معقول ولا مقبول .

ولكننا مع هذا ندعو إلى الحذر من تصديق كل مايروى عن التطبيقات الشيوعية فى الوقت الحاضر ؛ لأن الوصول إلى حقيقة النظم الروسية اليوم من أصعب الأمور ، ولم يسمح قط لرجل مستقل الرأى منزه عن الغرض بالطواف فى أرجاء روسيا على حريته بغير رقيب أو دليل ، وإذا سمح له بالطواف فى المواطن البعيدة عن الأسرار والخفايا ، فلا ينقضى أسبوع على معاشرته لفرد من الأفراد أو فئة من الفئات إلا أسرع الحاكمون بتبديله وإحلال آخر أو آخرين فى محله ، حتى لاتنعقد بين السائحين المستقلين وبين أحد من الروسيين صلات وثيقة تطلق عقال الألسنة وتكشف كوامن الصدور .

ولا حاجة بنا بعد هذا وذاك إلى ملاحظات السائحين المستقلين لإدراك هذه الحقائق الغنية عن الدليل ، فحسبنا أن حرية الكتابة مكبوحة فى روسيا منذ نيف وعشرين سنة لنعلم أن بواطن الأمور غير ظواهرها وأن رعايا الشيوعيين لايملكون الإفضاء بما فى ضمائرهم لأبناء وطنهم ، فضلا عن الغرباء الطارقين الذين يحاطون بالرقباء والأدلاء من قريب وبعيد .

ولا نزال نذكر الفكاهة التى رويت على لسان الفلاح الروسى حين سمح له بالتحدث إلى العالم الخارجى من محطة الإذاعة العامة على شريطة أن يفوه بكلمة واحدة ولا يزيد عليها ، فكانت كلمته التى جمعت كل ما أراد الإفضاء به إلى العالم الإنسانى كله هى : « النجدة ! » ولاذ بعدها بصمت الأموات .

فحسبنا أن المذهب فى أصول النظرية غير معقول ، وأن أقطابه لايقدرون على تطبيقه إلا بعد الانحراف عنه والتعديل فيه ، وأن الأقوال التى تصل عنه إلى العالم الخارجى لاتخلو من حجر ورقابة ، وهذه كلها حقائق متفق عليها حسبنا كما قلنا أن نعلمها لنعلم أن الحذر من تصديق ما يقال هو أقل ما تقابل به تلك الأقوال .

وليست كل التعليقات جداً كهذا التعليق الذى ألمعنا إليه من كلام « البورص إجبسيان » .

فهناك تعليقات الأوشاب !

وهناك تعليقات عبيد المعدة !

وهناك تعليقات الماديين الذين يفسرون كل شىء بالماديات !

والأوشاب وعبيد المعدة والماديون هى كلمات مرادفة لكلمة الشيوعيين باعتراف هؤلاء الشيوعيين الفخورين !

وهؤلاء — أوأذناب هؤلاء — يقولون إننى لا أكره الشيوعية ولا أكتب ما أكتب عنها إلا لأننى قبضت من أعدائها خمسة آلاف جنيه للتشهير بها فى بضع مقالات .

ولكنى أكتب ما أكتبه اليوم عن الشيوعية منذ كانت الشيوعية ، أو منذ عشرين سنة على التقريب .

وأكتب عن جميع المذاهب التى تناقض الديمقراطية كما كتبت عن الشيوعية والشيوعيين .

فما تفسير ذلك ياترى ؟ ولم لاتكون الكراهة هنا كراهة رأى ما دامت مطردة فى جميع الأوقات وعلى جميع المذاهب وبين جميع الأحوال ؟

كلا . لايمكن أن يفسر كلام إنسان بالرأى والعقيدة فى عرف الأوشاب وعبيد المعدة والمفسرين للتاريخ كله بالماديات .

أفى الدنيا إنسان يحارب رأياً لأنه يؤمن ببطلانه ؟ كيف يكون هذا ؟ وكيف يكون الإنسان عبداً للمعدة إذن ويكون الرأى محور أقواله ومثار خصوماته ؟

هذا مناقض « للمذهب » فى الصميم .

وهو كذلك مناقض « للخطط الحربية » التى أوصى بها ماركس أتباعه علانية ولم يتورع أن يزينها لهم فى منشوراته على مسمع من الدنيا بأسرها ؛ فهو القائل :

إن تشويه كل ديمقراطي حسن السمعة واجب مفروض على الدعاة ، وهو الذي سنّ لهم هذه السنة حين أشاع أن « باكونين » جاسوس للروس والنمسويين وهو يعلم أنه لطريدة الروس والنمسويين !

ومن عقائدهم التي لايخفونها أن « الحق » المطلق خرافة ليس لهـا وجود ، وأن ما يسمى حقاً إنما هو جملة المصالح التي تنتفع بها الطبقة الغالبة في أمة من الأمم ، وأن الكذب العمد على هذا لخدمة « الطبقة » أمر مشروع بل واجب مشكور .

فلا عجب إذن أن يقرفني الأوشاب عبيد المعدة بمايعهدون في أنفسهم وفي عقائدهم من الخلائق والأدناس .

بل عندي أنهم حيوني أكبر تحية في مقدورهم حين رفعوا سعر الرشوة التي أرشاها إلى خمسة آلاف من الجنيهات أجراً مقدوراً لبضع مقالات .

نعم هي أكبر التحيات التي يملكونها وهم يعلمون أن سعرهم جميعاً وأجور مجهوداتهم جميعاً منذ خدموا الشيوعية إلى أن تستغني الشيوعية عن خدمتهم لن يقارب خمس هذه الآلاف .

فلهم على تحيتهم المغصوبة شكر يلائمها .

ولهم فوق ذلك تبرع آخر ينتفعون به في كل لحظة إن وجدوا السبيل إليه .

فإنني لمتبرع لهم بهذه الآلاف الخمسة حيثما وجدوها في مصرف أو بيت أو ثمناً لعقار أو بضاعة أو أسناد تشرى وتباع .

وحيثما وجدوا ذلك المال فليكتبوا إلى صاحب الرسالة بموضعه ، ولهم أن أتبع كتابتهم بعد يوم واحد بتحويل صريح يخولهم قبضه حالا مباحاً وفاقاً لكل شرط يقترحونه من شروط القانون .

وليدعوا لي بالخير إذن كما يدعون للرفقاء أجمعين ، فإنني سأعطيهم إن صدقوا مالم يأخذوه — ولن يأخذوه — من رفيق ! .

☆ ☆ ☆

وندع هذه الأضاحيك ونعود إلى موضوع « المؤلفين والمقترحين » الذى كتبنا عنه فى الرسالة مقالنا الأخير .

فقد وردتنى فى هذا الموضوع رسائل شتى من مؤيدين ومناقشين ، وخير ماوردنى من رسائل التأييد رسالتان إحداهما يقول صاحبها « ا . زين العابدين » : إن كل نسخة من كتاب يقتنيها قارىء مثقف هى رد مطول على أصحاب المقترحات على قلتهم وإن كانوا من ذوى الثقافة والاطلاع .

والأخرى يقول صاحبها « محمد عبد الهادى » : إن رضى المؤلف عما كتب قرائه هو العزاء الذى يرجح بكل جزاء ويغنيه حتى عن الإعجاب والثناء .

وراقنى فحوى هذه الرسالة على التخصيص لأننى تلقيتها من محض المصادفة فى بريد واحد مع مجلة « ورلد ديجست » الإنجليزية وفى صدرها خطاب معاد لمستر شرشل يتكلم فيه عن « غبطة المؤلفين » ويجعلها — كما يجعل كل غبطة من نوعها — عليا المطامح التى ترتقى إليها آمال الناس فى هذه الحياة .

فليس فى الدنيا — كما يقول — سعادة أسعد من نجاحك فى التوفيق بين موضوع عملك وموضوع سرورك ، أو من اتخاذك العمل سبيلا من سبل الرياضة والرضاء ، وهو يسأل ويطيل فى سؤاله بما خلاصته .

ماذا يعنيك مما يحدث وراء الأفق الذى تعيش فيه بعملك وسرورك ؟ ليصنع مجلس النواب مايبدا له ، وليصنع معه مجلس اللوردات مثل هذا الصنيع ، ولتضطرب الأسواق ، وليثر من يثور ، فلا ضير عليك وأنت منزو فى تلك الساعات القلائل عن عالم يساء حكمه أو يساء نظامه .

ثم ينتقل إلى الحديث عن الحرية والتأليف فيرى أن أداة التأليف هى أخف الأدوات مئونة وأقلها كلفة لأنها قلم وصفحات من الورق ، وإن أبقى شىء يبقى من وراء أسداد الزمان والمكان هو الكلمات .

***

قل إنه عزاء للمؤلفين يخلقونه من الخيال أو يخلق لهم من وقائع الأيام ، فالمهم أنه قد خلق وأنه قد نزل من نفوسهم منزل العزاء الصحيح .

السلفية والمستقبلية

عنى الأديب الفاضل الأستاذ الحوفى بالرد على اللغط الذى يلوكه باسم التجديد ذلك الكاتب الذى يكتب ليحقد ، ويحقد ليكتب ، ويدين بالمذاهب ليربح منها ولا يتكلف لها كلفة فى العمل أو فى المال .

فهو يشترى الأرض ، ويتجر بتربية الخنازير ، ويسخر العمال ويتكلم عن الإشتراكية التى تحرم الملك وتحارب سلطان رأس المال .

وهو يعيش من التقتير عيشة القرون الوسطى فى الأحياء العتيقة ويتكلم عن التجديد والمعيشة العصرية .

وهو ينحى الحضارة الأسيوية وإنه لفى طواياه يذكرنا بخلائق البدو المغول فى البرارى السيبيرية .

ومن لغطه بالتجديد ذلك اللغط الذى لا يفهمه ، قوله الذى رد عليه الأستاذ الحوفى وهو : « التفت إلى عبارة قالها الأستاذ العقاد بشأن الإشتراكيين فى مصر لها مناسبة هنا . إذ هم يدعون على غير ما يجب إلى اللغة العامية ، وقد حسب عليهم هذه الدعوة فى فاتحة رذائلهم ، لأنه هو يعتز بفضيلة اللغة الفصحى ، ويؤلف عن خالد بن الوليد أو حسان بن ثابت ، ولكنه غفل عن التفسير لهذه الظاهرة الاجتماعية ، وهى أن الإشتراكيين شعبيون يمتازون بالروح الشعبى ويعملون لتكوينه ، وهم لهذا السبب أيضاً مستقبليون وليسوا سلفيين ... فى حين أنه هو سلفى الذهن فى لغته وأسلوبه وتفكيره وسلوكه ... » .

وهذا كلام عن السلفية والمستقبلية ببغاوى العبارة لا يعقل قائله ما يقول :

لأن الكتابة فى الموضوعات التاريخية ليست هى مقياس السلفية أو المستقبلية وإلا كان المؤرخون كلهم سلفيين لأنهم ما كتبوا ولن يكتبوا فى غير العصور السالفة

وفى غير الماضى البعيـــد أو القريب ، وإنما المقياس الصحيح هو طريقة الكتابة فى الموضوعات التاريخية والأبطال التاريخيين ، وبهذا المقياس يحسب الإنسان سلفياً رجعياً ولو كتب عن المستقبل الذى يأتى بعد مئات السنين . إذ هو قد يكتب عنه بروح الجهل القديم والعصبية الرجعية ، وهى العصبية التى عششت فى دماغ ذلك الكاتب الببغاوى فلا ينساها فى موضوع قديم ولا حديث .

ومن أصدق المقاييس للمستقبلية الإيمان بالحرية الفردية والتبعة الشخصية .

فليس فى التاريخ الإنسانى كله مقياس للتقدم أصدق ولا أوضح ولا أكثر اطراداً فى جميع الأحوال من مقياس حرية الفرد بين أمة وأمة ، وبين زمان وزمان ، وبين خليقة وخليقة ، وبين تفكير وتفكير .

فإذا قابلت بين عصرين اثنين فأرقاهما ولا ريب هو العصر الذى يعظم فيه نصيب الفرد من الحرية والتبعة الشخصية .

وإذا قابلت بين أمتين فى عصر واحد فأرقاهما ولا ريب هى التى تدين بالنظم القائمة على تقرير حرية الفرد وتحميله التبعة فى السياسة والأخلاق .

وهذا الفارق الحاسم هو أيضاً مقياس الفارق بين العالم والجاهل والرفيع والوضيع والرجل والطفل والرئيس والمرؤوس وكل فاضل وكل مفضول .

ولهذا كنا نحن مستقبليين لأننا ندين بمذاهب الحرية الفردية ولا ندين بمذاهب الفاشية والشيوعية ، ولا نرى فى واحدة منها خيراً لبنى الإنسان . وقد حار بنا الفاشية والنازية فى الوقت الذى كان فيه الببغاوات من أمثال ذلك الكاتب يطبلون لها ويزمرون ويسجدون لأبطالها ويركعون ، وعشنا وعاش الناس حتى رأوا ورأينا مصداق ما أنذرنا به وأكدناه وقررناه . وسنرى عن قريب مصداق ما أنذرنا به وأكدناه وقررناه فى أمر الشيوعية الماركسية على الخصوص ، لأنها هى المذهب الذى نحن على يقين من سوء مصيره وسوء وقعه وسوء فهمه بين أدعيائه ، وليس هو الاشتراكية فى صورتها الحرة المهذبة كما يغالط ذلك الكاتب الببغاوى فى التسمية وهو يتعمد أو لا يتعمد التغليط والتخليط .

وقد بدرت البوادر التى لاخفاء بها فعلم الشرقيون والغربيون أن سياسة بطرس الأكبر — لاسياسة المستقبل — هى التى يترنم بها الببغاوات فى هذا البلد وفى غيره من البلدان ، وسيرون المزيد والمزيد من دلائل الرجوع إلى القديم فى كل مسألة من مسائل الخلاف بين السلفيين والمستقبليين .

* * *

ومن مقاييس المستقبل التى لاتخطىء ولاتكذب فى الدلالة على الوجهة التاريخية العامة مقياس التعاون بين الدول ، أوالتعاون بين الطبقات ، أو التعاون بين الأفراد ، فإن هذا التعاون ملحوظ الخطوات فى السياسة الدولية من الزمن القديم إلى الزمن الحديث ، وهو كذلك ملحوظ الخطوات فى المعاملات التى تشيع بين أبناء الوطن الواحد وسيكون له الشأن الأكبر فى علاج مشكلات الاجتماع والاقتصاد على توالى السنين .

وبهذا المقياس — بعد مقياس الحرية الفردية — تعتبر الشيوعية من المذاهب الرجعية التى ترجع بنا إلى سيادة الطبقة الواحدة وإن كانت تزعم أنها طبقة وحيدة وأنها هى طبقة الصناع والأجراء . فسيادة الطبقة الواحدة أقدم الصور الاجتماعية التى عرفها الناس ، والشيوعية لا تغير فى الأمر غير عنوان الطبقة ... إن صح ما تدعيه .

* * *

وأسخف السخف قول ذلك الكاتب الببغاوى إن الشيوعيين « يفضلون اللغة العامية لأنهم شعبيون مستقبليون » .

ومصيبة الدنيا أن تحشو هذه الببغاوات أفواهها بما تسميه تفسير الظواهر الاجتماعية وهى لا تفسر تحت آنافها ما تسمعه بالآذان وتبصره بالعيون .

فاللغة العامية لغة الجهل والجهلاء وليست بلغة الشعبيين ولا من يحبون الخير للشعوب .

لأن الغنى الجاهل يتكلم اللغة العامية ولا يقرأ اللغة الفصحى ولا يمتاز بفهمها على الفقراء .

ولأن الفقير المتعلم يفهم الفصحى ويكتبها ، كما يفهمها سائر المتعلمين من العلية أو السواد .

فأعداء الشعب حقاً هم أولئك الذين يفرضون عليه الجهل ضربة لازب ولا يحسبونه فى يوم من الأيام صاعداً من حضيض الجهل إلى طبقة المعرفة والثقافة .

وأصدقاء الشعب حقاً هم الذين يفتحون له أبواب المزايا العالية ويسوون بينه وبين القادرين على التعلم والمتكلمين بلغة المتعلمين .

والمسألة هنا — أيتها الببغاوات التى تفسر الظواهر الاجتماعية — ليست مسألة شعبيين وطبقات وأجور رؤوس أموال كما يهذى كارل ماركس وأتباعه المفتونون .

وإنما هى مسألة الفارق السرمدى بين المعيشة اليومية وبين الحياة الإنسانية الباقية على اختلاف الأمم وتعاقب العصور .

فكل ماهو من باب القيم الإنسانية الباقية فلا مناص له من تعبير غير تعبير السوق والبيت وكلمات التسلية والاستلقاء ، ولو أجبرنا الناس جميعاً فى هذه الساعة على الكلام بالعامية دون غيرها لما استطاعوا أن يتجنبوا اللغة الخاصة . والمصطلحات الخاصة والتراكيب الخاصة سنة واحدة حين يكتبون فى الطب أو الرياضة العليا أو الكيمياء أو القانون ، ولكان عسيراً عليهم أشد العسر أن يكتبوا بالعامية مذهباً كمذهب كانت أو مذهب لبروزو أو قصيدة كقصائد المتنبى وبيرون وشكسبير .

فإذا كانت اللغة الخاصة لازمة للمتعلم على كل حال لاستيفاء علم الطب أو علوم الرياضة أو علوم القانون فلماذا تحرم عليه لاستيفاء علوم الأدب والقدرة على التعبير الذى لا يتجاوز حدود اليوم ويصاحب الأمم الإنسانية عدة أجيال ؟ ومن قال إن الإنسان يستخدم لغة واحدة حين يساوم على بطيخة أو حين يغسل القدور ويخرط الملوخية ، وحين يتكلم عن غبطة النفس بالربيع وسمو الأمل بالحب ونبل الفداء فى سبيل المثل العليا ؟ .

ماهذا الولع بالتسفل وهذا الإنكار لكل ارتفاع ؟ ماهذا التمرغ فى كل وضيع وهذا الحرَد الذى لايطاق على كل شريف رفيع ؟ .

فاللغات الفصحى لم تحفظ حتى اليوم لأن الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال يتكلمونها فى البيت والسوق ، ولم تحفظ حتى اليوم لأنها مزية طبقة من الطبقات الاجتماعية أو مزية الأغنياء القادرين على التعليم ، فإن أغنى الأغنياء كثيراً ما كانوا من أضعف المعبرين ، وأفصح الفصحاء كثيراً ما كانوا من الفقراء والمعدمين . وإنما اختلفت اللهجتان على مدى الزمن بضرورة الاختلاف بين حياة البيت والسوق وحياة المعرفة والتهذيب التى تتجاوز حاجة اليوم إلى حاجة الأجيال .

وانما الحقد على كل شريف رفيع هو الذى يسول للبغاوات أن يحاربوا اللغة الفصحى باسم الشعبية والشعبية منهم براء .

والمرجع بعد إلى الذوق والشعور وخصب الخيال ، وهى ملكات حرمتها الشيوعية وذووها من كارل ماركس إلى أذنابه الذين لا يفقهون مايقول ، ولو فقهوه لما عظم شأنهم بين شئون النفوس والعقول .

فى مصر فلسفة

نعم فى مصر فلسفة .

ونحمد الله على ذلك كما حمد فردريك الكبير ربه على أن فى برلين قضاء .

ولكننا نحن أولى بالحمد من فردريك الكبير ، لأن القضاء العادل ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية يتفقدها الناس إذا فقدوها ، ويجدونها إذا طال تفقدها ، وكان بهم صلاح لوجودها .

أما الفلسفة فلا يبحث عنها من يفقدها ، لأن من يفقدها يجهلها ولا يحفل بها ، وقد يسخر منها إذا سمع بذكرها ، وقد يتفق أصدقاؤها وأعداؤها على أنها نافلة من النوافل وزيادة من الزيادات ، وإن قال الأصدقاء إنها نافلة الكمال ولا غنى عن الكمال ، وزيادة الفضل ولا تطيب للفاضلين حياة المفضولين .

فإذا كان القضاء العادل ضرورة محسوسة فصناعة الفلسفة ليست بضرورة من ضرورات المعاش ، أو هى على الأقل ليست من الضرورات المحسوسات : تلك ضرورة وطن وزمن ؛ وهذه ضرورة لايشعر بها الإنسان إلا إذا تجاوز نطاق الأوطان وأصبح نطاقه الكون كله ، فى كل زمان .

أو هى العلم الكلى كما قال المعلم الثانى أبو نصر الفارابى : « فإن العلوم منها جزئية ومنها كلية ، والعلوم الجزئية هى التى موضوعاتها بعض الموجودات أو بعض الموهومات . . . مثل علم الطبيعة فإنه ينظر فى بعض الموجودات وهو الجسم من جهة ما يتحرك ويتغير ويسكن عن الحركة ، ومن جهة ما له مبادىء ذلك ولواحقه . . . أما العلم الكلى فهو الذى ينظر فى الشىء العام لجميع الموجودات مثل الوجود والوحدة ، وفى أنواعه ولواحقه ، وفى الأشياء التى لا تعرض بالتخصيص لشىء شىء من موضوعات العلوم الجزئية مثل التقدم والتأخر والقوة والفعل والتام والناقص

وما يجرى مجرى هذه ، وفى المبدأ المشترك لجميع الموجودات ، وهو الشىء الذى ينبغى أن يسمى باسم الله جل جلاله . . . لأن الله مبدأ للموجود المطلق لا لموجود دون موجود . فالقسم الذى يشتمل منه على إعطاء مبدأ الموجود ينبغى أن يكون هو العلم الإلهى ، لأن هذه المعانى ليست خاصة بالطبيعيات بل هى أعلى من الطبيعيات عموماً فهذا العلم أعلم من علم الطبيعة ، وواجب أن يسمى علم ما بعد الطبيعة . . . »

وكلام صاحبنا الفارابى على تركيبته العربية أو عربيته التركية كلام صحيح فى التعريف بفضل الفلسفة أو البحث فيما وراء المادة وما وراء الزمان والمكان ، ولكننا بعد ما قدمناه فى موقع الفلسفة من الضرورة نعود فنقول : إنها ليست من البعد عن حياتنا الفردية أو حياتنا الاجتماعية بحيث تخرج من عالم الطبيعة إلى ما وراءها ، وإن الإنسان ما عاش ولن يعيش بغير فلسفة حياة منذ بحث فى العلاقة بينه وبين العالم المنظور والعالم المحجوب ، ومرحلة الحياة كما قلنا فى بعض كتبنا الحديثة : « كجميع المراحل التى نقطعها من مكان إلى مكان ، لا تركب القطار حتى تحصل على التذكرة ، ولا تحصل على التذكرة حتى تعرف الغاية التى تسير إليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثانى لا يقرأها ، أو أن أحدهما يؤدى ثمنها من ماله والثانى يؤدى له الثمن من مال غيره . . . »

والعجب أن بعض الفضلاء من طلاب الحقيقة لا ينظرون إلى الفلسفة هذه النظرة ، ولا يحجمون عن نعتها باللغو الفارغ والهذر الذى ليس وراءه طائل ، وكذلك فعل الكاتب النزيه الأستاذ نقولا حداد حين جرى البحث على صفحات (الرسالة) عن وحدة الوجود ، فضرب المثل على سخف المذاهب الفلسفية القديمة بقول فيثاغورس إن العدد هو سر الوجود ، وإن النسبة بين الأشياء هى نسبة بين أعداد .

قال فيثاغورس ذلك قبل خمسة وعشرين قرناً ، فكان فرضه هذا أقرب إلى الصدق من فروض علمية كثيرة فتن بها الناس إلى سنوات .

وقاله فيثاغورس حين رأى أن الأوصاف كلها قد تفارق الموجودات من لون

أو لمس أو صلابة أو ليونة أو وزن أو ما شابه هذه الأعراض الكثيرة إلا العدد ؛ فإنه ملازم لكل موجود ، فرداً كان أو أكثر من فرد ، وكاملا كان أو غير كامل وأن الفروق بين الأشياء هى فروق بين تركيب وتركيب أو فروق بين نسب الأعداد وأن الكون كله « دور موسيقى » هائل يدور على قياس منسجم كما يدير العازف الماهر ألحان الغناء .

وأنشد الكون ألحانه التى لاعداد لها ، وتوالت الفترات التى نعدها نحن بالسنوات والقرون ، وظهر اليوم للباحثين أن الأجسام نسب بين أعداد ، وأن الفارق بينها فارق فى هذه النسب دون غيرها ، وأن التناسق فى هذه النسب أصدق من أجرام المادة الملموسة باليدين ، وأن الأصح فى تركيب الذرة أن يقال إنه « عددى » لا أنه « مادى » ملموس .

و إذا قال فيثاغورس هذه المقالة قبل خمسة وعشرين قرناً ، فليس من حقه أن توصف مقالته بالفراغ وهى أملأ من فروض العلماء بعده فى معنى الوجود وفوارق الأجسام ، وهى على أضعف الأحوال أدق من قول بعض العلماء إن أصل المادة أثير.

* * *

وكان الفلاسفة يبحثون فى العقل والمادة من عهد الفراعنة إلى عهد اليونان إلى عهد العرب إلى عهد الأوربيين المحدثين .

يسأل سائل : أهما محدثان أو قديمان ؟

ويسأل آخر : و إذا كان محدثين فمن الذى أحدثهما ؟

ويسأل غيرهما : و إذا كانا قديمين فكيف يتفق قديمان ليس لواحد منهما بداية ولا نهاية ؟

ويعود هذا السائل أو ذاك فيقول : و إذا كان أحدهما سابقاً للآخر وموجداً له فأيهما الأول وأيهما الثانى فى ترتيب الوجود ؟

ويفترق المجيبون فيقول فريق منهم : إن الحيوان ظهر بعد الجماد و إن

الإنسان ظهر بعد الحيوان ، فالمادة إذن أسبق من العقل فى الترتيب .

ويقول فريق آخر : إن فاقد الشىء لا يعطيه ، وإن العقل أشرف من المادة ، فهى لا تخلقه وهو أولى بأن يخلقها ويسبقها فى الوجود على الأقل سبق العلة للمعلول .

أكلام فارغ هـذا ؟

أهو كلام لا يعنينا ولا يدخل فى حسابنا ؟

كلا ... لأن التفسير المادى للتاريخ مذهب عملىّ فى الحياة الاجتماعية قام على القول بأن المادة هى القديمة وأن العقل هو الحديث ، وتوطدت عليه دعوة « كارل ماركس » التى فعلت بعد ذلك الأفاعيل فى مجرى السياسة العالمية وفى مجرى العلاقة بين الطبقات ، ولو استطاع فيلسوف أن يقنع الإمام وأتباعه بقدم العقل وحدوث المادة لتغير تاريخ الكرة الأرضية وتغيرت نظرات الملايين من الناس إلى الحياة .

فهذه الصناعة التى تسمى بالفلسفة لا تغادر الطبيعة كل المغادرة ولا تنطلق منها إلى ما وراءها بغير رجعة إلينا فى حياة الغذاء والكساء .

وإهمال هذه الصناعة غير مأمون على مهمليها ، لأن الفرق بين الفلسفة الصالحة والفلسفة الطالحة قد يكون فرقاً بين ثورة واستقرار ، أو بين حرب وسلام ، أو بين هداية وضلال .

ونحن حين نذيع البشارة بقيام الفلسفة فى مصر لا نذيع بشارة فى سماوات الخيال ولا ننسى الذين يعيشون ويعلمون أنهم يعيشون لأنهم يأكلون ويشربون ويلبسون ، أو لأنهم لا يطلبون من هذا الوجود مطلباً غير المأكل والمشرب واللباس .

* * *

نعم فى مصر فلسفة .

نعم وفيها عناية بالكتب الفلسفية .

وآية ذلك أننا تلقينا فى عام واحد نحو عشرين رسالة فى المباحث الفلسفية وما إليها ، وعلمنا أنها تقرأ فى بيئة المتعلمين الذين يؤدون الامتحان المدرسى وتقرأ فى بيئة المطلعين الذين يقنعون بالاطلاع .

من هذه الرسائل القيمة رسالة للأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق باشا عن فيلسوف العرب والمعلم الثانى والشاعر الحكيم وابن الهيثم وابن تيمية ، فيها أوفى تعريف ينال بمثل هذا الإيجاز .

ومنها كتابا الأسرة والمجتمع والمسئولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد وافى أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب ، وقد نوهنا بالكتاب الأول فى (الرسالة) وثانيهما فى طبقة الأول من حيث الإفادة والتحقيق .

ومنها كتب ثلاثة فى « الفلسفة الرواقية » وسيرة الإمام محمد عبده ، وشخصيات ومذاهب فلسفية للدكتور عثمان أمين ، وأولها أوفى كتاب بالعربية فى موضوعه ، ويضارع خيرة الكتب الأوربية فى هذا الموضوع ، وقد أنصف الأستاذ الإمام فى سيرته الوجيزة ، وصحح أوهاماً شائعة فى الشخصيات والمذاهب الفلسفية ، وأغنى المتطلعين إلى هذه البحوث عن كثير من المراجعات .

ومنها التعليم عند القابسى للدكتور الأهوانى ، وهو بيان لفن من الفنون كان المظنون أن العرب أهملوه ، فألم الدكتور بتاريخه وشرح آراء القابسى فيه .

ومنها كتاب التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام ، وكتاب الشعرانى إمام التصوف فى عصره ، وكتاب الأحلام للدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول ، وكلها نمط واحد فى حسن التقسيم وتقرير المعلومات وفطانة التعقيب .

وظهرت إلى جانب هذه الكتب القيمة والرسائل المسعفة مجلة مقصورة على علم النفس للأستاذين يوسف مراد ومصطفى زيور تعنى بأشرف البحوث المتخيرة فى موضوعها ، وتشغل مكاناً لم يكن بالجميل أن يفرغ بعد الآن فى اللغة العربية .

ويجب أن نقرر هنا أننا أحصينا ما رأيناه ، ولم نحص كل ما صدر للجمعية الفلسفية أو لغيرها من دراسات الفلسفة والتصوف وعلم النفس وما إليها .

وبعض هذا يكفل للمباحث الفلسفية حيزاً موقراً فى هذا البلد ويجيز لنا أن نقول : إن مصر فلسفة ، وإنها بشارة تذاع ، لأنها بعض الأدلة على انتقال المصريين

من عالم الضرورة إلى عالم الحرية والاختيار ، ومن أسر الحاجة التى لا تخلو من عبودية إلى شرف الكماليات التى لا تخلو من عزة وارتفاع .

وقد وددنا لو استطعنا أن نبسط القول فى كل كتاب من هذه المجموعة النفيسة لولا أنها حرب خاطفة تقابل بإشارات خاطفة ، وإذا بلغ بأصحاب الفلسفة أن يشكو الناس سرعتهم ونشاطهم ، فتلك علامة خير وحجة على من يحسبون الفلسفة قرينة للدعة والركون إلى السكون .

لكن نشاطهم هذا يغرينى باقتراح عليهم أوحاه إلىّ حديث مع أستاذ الجيل وكاشف أرسطو للعرب فى هذا الزمان العلامة الكبير أحمد لطفى السيد باشا مد الله فى عمره وأدام به النفع والهداية .

فالأستاذ قد ترجم لأرسطو كتاب الأخلاق وكتاب الكون والفساد وكتاب السياسة ، وينوى أن يترجم له كتاب الروح أو كتاب ما بعد الطبيعة .

وما ترجمه الأستاذ الجليل هو أصح ما نقل عن المعلم الأول إلى اللغة العربية ، وقرين فى الصحة والوضوح لأفضل الترجمات فى اللغات الأوربية .

ولكن لا يزال الغلط البالغ محيطاً بالمنقولات الأخرى عن أرسطو منذ تصدى له النساطرة والإسرائيليون الأندلسيون ، لأن الجلة من أولئك المترجمين كانوا يجهلون معانى الفلسفة ويجهلون دقائق العربية ، ولا ندرى الآن مبلغ علمهم باليونانية ، وليس أولى بتصحيح أغلاطهم من عصرنا هذا الذى تيسرت فيه مراجع الفلسفة اليونانية وتيسرت فيه العناية بها والترجمة عنها .

وقد خطر لى أن ترجمة أرسطو وأفلاطون عسيرة على الفرد إذا استقل بها ، ميسرة للجماعة إذا تعاونت عليها ، فماذا على شبابنا الفضلاء المتفرغين للفلسفة بأنواعها لو تقاسموا بينهم آثار الحكيمين جميعاً ففرغوا منها فى عام واحد أو عامين ؟

إن فى أرسطو وأفلاطون لما يصلح العقول ويقوّم التفكير حتى فى هذا الزمان وما تباعد فيه الخلف بين آرائهما وآراء عصرنا حقيق بالدراسة كتلك الآراء الخالدة

التى لم يطرأ عليها الخلف والتغيير ، لأن دراسته دراسة لعقل الإنسان ، وهو موضوع الدراسة فى كل أوان .

وعمل الجمعية الفلسفية ناقص إذا بقيت اللغة العربية بين لغات الحضارة خلواً من ترجمة صحيحة للحكيمين الخالدين ، وظنّنا بها أنها قادرة على التمام .

وطلب التمام على من يستطيعه فرض عين فى لغة الحكماء ، وهى هنا قريبة من لغة المتصوفة ولغة الفقهاء .

obeikandl.com

الفلسفة مأمونة

« أتمن الله على الخطر ؟ ... إن الفلسفة خطر على أصحابها وخطر على عقول العامة ، لأنها مازالت منذ كانت تثير الظنون وتعرض المشتغلين بها للقيل والقال .. » .

قرأت هذا فى كتاب غفل من الإمضاء ، فكان فى ذلك بعض الدليل على أن اتهام الفلسفة بالخطر فى زماننا هذا هو الخطر الذى يستتر منه الناس .

وأبادر فأقول لصاحب الخطاب ومن على رأيه إن الكتب الفلسفية التى أشرت إليها فى مقالى السابق بالرسالة ليست من الكتب التى يختلف فيها قولان ، لأنها تتناول المباحث التى يتفق على دراستها رجال الدين ورجال العلم ولا يتحرج من قراءتها أصحاب رأى من الآراء .

ونحن مع هذا فى زمان غير الزمان الذى كان يخشى فيه على الفلاسفة والمتفلسفين .

وبودى أن أقول بعد هذا وذاك إن الفلسفة مظاومة فى تلك الأزمنة التى كانت تتخذ فيها ذريعة للتنكيل بمن أصابهم التنكيل من جرائها أو من جراء الانتساب إليها .

فقد ظلموها والله حين أصابوا باسمها من أصابوه ، فإنما كانوا يحسدون الفيلسوف على مكانة مرعية أو يبغضونه لعلة ظاهرة أو خفية ، فيظلمونه و يظلمون الفلسفة معه ، ويجهل الأمر من يجهله فيقول : إن هؤلاء الظالمين منصفون لأنهم عاقبوا من يستحق العقاب ولم يأخذوه بغير جريرة ولم يختلقوا عليه الذنوب ! .

ولو كانت الفلسفة هى العلة الصادقة لأصابت النكبات كل فيلسوف يبحث فيما وراء الطبيعة و يتصدى للكلام فى أصل الوجود أو أصول الموجودات .

ولكنهم لم ينكبوا من الفلاسفة فى الواقع إلا من كان ذا منزلة محسودة ومقام ملحوظ وإلا من دخل معهم فى مشكلات السياسة ومطامع الرئاسة ، أو كانت لهم عنده ترة يتحملون الأسباب لمجازاته عليها ، فيرجعون بها إلى هذه الفلسفة المسكينة ، وهى غنية بالعلل والأسباب ! .

و إلا فما بالهم لم ينكبوا الكندى والفارابى ونكبوا ابن سينا الوزير وابن رشد قاضى القضاة ؟ .

فالكندى كان رجلا ميسور الحال موفور المال ولكنه اعتزل الناس ولم يشترك معهم فى مطامع الرئاسة فتركوه يتفلسف كما يشاء ، وكان قصارى ما أصابه من ألسنتهم أنهم تندروا ببخله وزيفوا الأحاديث عن عشقه وغرامه ، وسلم له رأسه إلا مما سرى إليه — فيما قيل — من وجع فى الركبة قد استعصى على العلاج .

والفارابى نظر إلى محيط السموات وأعرض عن الأرض ومن عليها وقال فى رياضته الهندسية ورياضته النفسية :

وما نحن إلا خطوط وقو ... ن على نقطة وقع مستوفز
محيط السموات أولى بنا ... ففيم التزاحم فى المركز !

فقالوا له : دونك وما تشتهى من محيط السموات ، ودعنا وما نتزاحم عليه من هذه المراكز والنقاط ! .

أما ابن سينا فقد زج بنفسه بين المتنازعين من الأمراء والرؤساء ، فزجوه فى السجن وألجأوه إلى النفى وضيقوا عليه المسالك وعلموه طلب السلامة فى زوايا الإهمال .

قال تلميذه ومريده أبو عبيد الجوزجانى « ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها . ثم اتفق تشويش العسكر عليه و إشفاقهم منه على أنفسهم ، فكبسوا داره وأخذوه إلى الحبس وأغاروا على أسبابه وأخذوا ما كان يملكه وسألوا الأمير قتله فامتنع منه ، وعدل إلى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم ، فتوارى فى دار الشيخ أبى سعد ... » إلى أن عاد .

فالعلة فى الأرض لا فى السماء .

والمصيبة من « الطبيعة » لا مما وراء الطبيعة .

وآفة الرجل أنه أراد أن يكبح السلاح بالحكمة ، ولو استطيع ذلك لاستطاعه أرسطو فى سياسة الأسكندر . . وهيهات .

ثم مات الرجل فى داره حينما زالت عنه رهبة السلطان ولم يمت فى الحبس كما وهم بعضهم فى قول بعض حاسديه :

رأيت ابن سينا يعادى الرجا ل وبالحبس مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفا ولم ينج من موته بالنجاة

وإنما كان « الحبس » فى اصطلاحهم بديلا من داء « الإمساك » فى اصطلاح هذا الزمان ! .

وقد صدق هذا الحاسد الشامت حين رد البلية كلها إلى معاداة الرجال لا إلى معاداة الله أو معاداة رسل الله .

وابن رشد جمع على نفسه بين حسد الوجاهة والنباهة و بين سخط العظماء ونكاية ذوى السلطان .

شرح كتاب الحيوان لأرسطو وهذبه وقال فيه عند ذكره الزرافة « رأيتها عند ملك البربر » ... وكان إذا حضر مجلس المنصور وتكلم معه أو بحث عنده فى شىء من العلوم يخاطب المنصور بأن يقول : تسمع يا أخى ! ولايخاطبه بألقاب الملوك والخفاء .

فجزاه « ملك البربر » دقة بدقة ونكاية بنكاية ، ورآه يستكثر عليه أن ينسب إلى العرب أو يسمى بخليفة المسلمين فقال له : بل أنت الدخيل على أمة العرب وملة الإسلام فيما صح لدينا من الأنساب التى لاتقبل الكلام ! .

وهكذا أصبحنا « خالصين » ! ...

وأصبح « محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد » يستتر وراء هذه الأسماء سلسلة من أسماء بنى إسرائيل ، ونفوه إلى محلتهم فى جوار قرطبة لأنه دسيسة على المسلمين من سلالة اليهود الذين يفتنون أتباع محمد بفلسفة اليونان ! .

ولولا تلك المقابلة فى الإساءة والانتقام لجاز أن يلصق هذا الظن بالرجل وإن لم يقم عليه دليل أو قام الدليل على نقيضه ، لأن أعدى أعدائه الشامتين به فى نكبته قد نفى هذه الدسيسة عن نسبه وشهد لجده بالتقوى والصلاح حيث قال :

لم تلزم الرشد يا ابن رشد لما علا فى الزمان جدك
وكنت فى الدين ذاء رياءٍ ماهكذا كان فيه جدك !

ومن قائل هذه الشهادة فى جده ؟ هو الحاج أبو الحسين بن جبير الذى جعل من أهاجى ابن رشد أغنية يرتلها و يعيد ترتيلها على اختلاف القوافى والأوزان . فقال فى تلك الأهاجى الكثيرة :

ألآن قد أيقن ابن رشد أن تواليفه توالف

وقال :

كأن ابن رشد فى مدى غيه قد وضع الدين بأوضاعه

وقال يحرض على قتله :

وقد كان للسيف اشتياق إليهمُ ولكن مقام الخزى للنفس أقتل

ولو رجعنا إلى سر هذه البلية كلها لوجدنا أن « علا فى الزمان جدك » هى تفسير هذه الأبيات أو تفسير تلك النكبات ، و إن الزرافة التى عند « ملك البربر » هى التى أدخلت نسب الرجل فى سلالة بنى إسرائيل .

فالخطر ياصاحبى على الفلاسفة من الدنيا لا من الدين ، ومن الخاصة الحاسدين لا من العامة الغافلين .

وما خطب العامة والفلسفة وهى لا تصل إليهم وهم لا يصلون إليها ولا تنعقد بينهم و بينها علاقة نظر ولا علاقة سماع ؟

فإذا تحرك العامة فابحث عن « الصلة » بينهم و بين القضية فلن تجدها فى أكثر الأحوال إلا نكاية حاسد أو وشاية جاحد أو حجة ظالم يستر ظلمه للفلسفة بدعوى الانصاف للدين ، و إن الدين منه لبراء .

واعلم يا صاحبى أن العامة فى كل زمان وحش محبوس لا ينال فريسته إلا بعد تحريش وانطلاق ، و إن الذين يحرشونه و يطلقونه هم أصحاب الدنيا وعروضها وليسوا بأصحاب العقائد وفروضها . إلا فى النادر الذى يحسب من الاستثناء .

وما أصدق المعرى حين قال متسائلا : ما للناس ولى وقد تركت لهم دنياهم !

فإنه قد لمس الداء فى أصوله حين حسب أن ترك الدنيا يتركه فى أمان ، وقد تركه فعلا فى أمان إلا من القيل والقال ، وهو أهون ما يمر بالرجال .

تفلسف ياصاحبى كما تشاء ودع الناس يتفلسفون كما يشاءون فما دامت فلسفتك لا تصيب أحداً فى نياه ولا تفيد أحداً فى دعواه ، فأنت ظافر برضوانهم وظافر عندهم برضوان .

أما إذا أصبت دنياهم ونقضت دعواهم فياويلك إذاً من الأرض والسماء ، وياسوء ماتلقاه من العلية والدهماء ، ولو زكاك النبيون وشهد لك الأولياء ، ولزمت الصلاة والدعاء فى كل صباح ومساء .

ومالك تذكر الخطر على الفلاسفة ولاتذكر الخطر على حماة الدين من الأنبياء والمرسلين ؟ فهم الذين علموا الناس الأديان وهم الذين يثار الناس باسمهم حين يثارون على الفلاسفة ومن يزعمونهم من أهل النكران والجحود ، ولو وزنت حظوظهم من البلاء والاستهزاء ووزنت معها حظوظ الفلاسفة والمتفلسفين ، لما حارت « شركات التأمين » بين أصحاب اليسار وأصحاب اليمين .

هى الدنيا ياصاحبى تظلم الدين كما تظلم الفلسفة بما تدعيه عليه وعليها ، وأحسبنى قد باكرت هذا المعنى القديم حين قلت قبل نيف وثلاثين سنة :

لو كان ما وعدوا من الجنّات فى هـذى الحياة لسرهم من يكفر

فدع دنياهم وتفلسف على بركة الله ، وأنت فى أمان من الله ومن عباد الله .

دار الكتب المصرية
قسم التصوير والتراجم